اَلْقُرْآنُ اَلْكَرِيمُ

بَيْنَ مَقَاصِدِ تَدَبُّرِهِ وتَدَبُّرِ مَقَاصِدِهِ

كتبه

أبو عبد الله

خَبَّابْ بنُ مَرْوَن الحَمَد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أكرم أمَّة الإسلامية بالمعجزة الخالدة، والآية الباقية، وأنزل عليها كتاباً من لدنه يحمل لنا كلامه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحمد لله حمداً طيباً مُباركاً فيه أن أرسل لنا رسوله محمداً صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ليتحمَّل إنزال القرآن الثقيل على قلبه العظيم؛ حتَّى بلَّغ به أمَّة الإسلام، وهداهم بكتاب الله سبل السلام.

والحمد لله الذي هيَّأ لرسوله صحابة كرام، قاموا بحمل القرآن، وحفظوا حروفه للأجيال القادمة، وحفظوا حدوده فطبّقوه في حياتهم السالفة – رضوان الله عنهم –حتَّى وصلنا كتاب الله تعالى محفوظاً من غير نقص ولا زيادة.

والحمدلله الذي وهب لأمَّة الإسلام من يتحمَّل حفظ كتاب الله والدفاع عنه، والجهاد تحت راية القرآن، ففتحوا بكتاب الله أقفال قلوب العباد، وخضعت تحت وحُكْمِهِ أغلب البلاد.

والحمد لله الذي وفَّق عدداً من أهل العلم؛ للقيام بحمل رسالة القرآن، ونشرها بين بني الإنسان، لإعادة دور القرآن في حياتنا، وبعث روح التدبر في قلوبنا، وتثوير القرآن واستخراج كنوزه ودرره وفوائده وعِبره لإصلاح مُجتمعتنا والإرتقاء بأمَّتنا.

فله الحمد، وله الشكر، وله الثناء الحسن، حمداً سرمدياً دائماً أبداً ما تعاقب الليل والنهار، وجرت المياه في الأنهار، ودارت الأمواج في البحار، وغنَّت الطيور فوق الأشجار، وحطَّت النحل فوق الأزهار، وتساقطت من بدء الزمان لآخره الثمار

أمَّا بعد:

فإنَّ العبد المؤمن في هذا الزمان، يرى تقاذف الغزو الفكري المطوّح لفكر الإنسان، ويُشاهد مدى تأثير ثورة الاتصالات والمواصلات والتقنيات على فكر العالم البشري، ويحار كثيراً في طريقة التعامل مع هذه الأمم التي يتداركها الله تعالى بوجود (عباد الرحمن المؤمنين) في عالم يعجُّ بالكفر والفجور والطغيان والفساد والاستبداد والنفاق والتفلُّت الديني والأمني والفكري والاجتماعي.

وتبقى فيه بقيَّة باقيَّة من أهل الإيمان والصلاح والإصلاح، تأخذ على عاتقها ردّ الناس إلى حظيرة هذا الدين، وحماية بيضة الإسلام من تأولين الجاهلين وانتحال المبطلين وإفساد المفسدين والاعتداء العام على بلاد الله وعباده في الأرض أجمعين.

وبما أنَّ أُمَمَاً صارت تعظِّم من شأن العقل البشري وتُوثِّنه وتستصنمه، وترفع من مقداره إلى منزلة لا يستحقُّها، وبات فئام من الناس يستأثرون بفكرهم ويرون فيه العلو الذي يُفاخرون به أممهم، ويحاولون التأثير على العقول الفارغة. والقلوب القابلة، فإنَّ المسلم بين يديه قراطيس لو علم كنوز ما فيها، وروعة

معانيها، وأسرار روحها، لانبعث بها هادياً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى ربِّه بها، فهي الحل الأنجع والداء الأروع لعلاج مشكلات هذا الزمان.

لقد ثبت في صحيح مسلم من حديث زَيْدِ رضي الله عنه قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قَالَ "أَمَّا بَعْدُ أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ"(١).

وثبت كذلك في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أنَّ رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قال في خطبة الوداع يوم عرفة: "تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابَ اللَّه"(٢)

إنَّ رسولنا عليه الصلاة والسلام، إذ يوجّهنا إلى الاستمساك بهذا الكتاب وقت الفتن وانتشار الضلالات؛ فكأنَّه يستشرف مستقبلاً سيكون فيه شيء من القواصم التي تحتاج للعواصم، ولا أعظم من من أن يستمسك العبد بكتاب الله، ممتثلاً أمره تعالى القائل:﴿ **فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣** ﴾الزخرف: ٤٣، فالاعتصام بكتاب الكريم هو الحل الناجع الذي لن يضلِّ بعده أبداً من تمسَّك به، وأحسن أخذه، والتعامل معه وبه، ملتحماً بكتاب الله تعالى، بإنعام النظر، واستغراق الفكر، وإجالة البصر، غائصاً في درره، مستيقظاً بِعِبَرِه، مبتهجاً بخبره، موقناً أنَّه كلَّما أعطى من نفسه لكتاب الله حظاً ونصيباً من التأمل والتدبر، أعطاه هذا الكتاب العزيز من كنوزه وأسراره ما هو نافع لنفسه وأمَّته، بما لا يخطر على باله ، ولم يسنح في خياله، ولربَّما استغرب بعد مُدَّة إن قرأ ما كتبه بعد انقطاع عنه لشهور أو سنين، ويعلم أنَّ أسرار تدبُّره انطلقت يوم أن منح من روحه شيئاً مع الروح (القرآن)، فحصل بينهما تفاعل عظيم، استشعر فيه أنَّ الله تعالى قد فتح عليه حينما أعطى القرآن ثمرة قلبه، وصبابة فؤاده.

قال سهل بن عبد الله التستري:"لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لانهاية لفهم كلامه..وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه"(٣).

وذلك لأنَّ المرء ولو أعطى ثمرة قلبه وصبابة فؤاده ما أعطاه للنظر والتفكّر والتدبُّر في كتاب الله، لن يبلغ ما يعطيه القرآن عشر معشار ما يتطلّبه من تدبُّر وإنعام نظر؛ إذ معانيه لا تنضب، وحِكَمُه لا تنفد،

---

(١) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه:(٤٤٢٥).

(٢) صحيح مسلم: كتاب الحج، باب: حجة النبي صلى الله عليه وسلم: (١٢١٨).

(٣) البرهان في علوم القرآن، محمد الزركشي، : (١/ ١٠٢)

ففي القرآن الكريم معانٍ وأسرار، ومقاصد كِبار، تحتاج لقلوب حيَّة يقظة كي تلتفت إليها وتبلغ شأوها، فهو الكتاب الذي لا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه!

فالقرآن الكريم كالبحر العظيم، الذي ما إن يأتي الصائد ليستخرج منه دُرَرَه الكامنة، ويُصيب شيئاً من ذلك حتَّى يشعر بالرضا التام، بعد جولة من عمليَّة الاستخراج لما فيه، لكنَّه يعلم علم اليقين أنَّ أخذ من هذا البحر ما لا يكاد يُذكر ؛ فإنَّه باقٍ بما فيه من مستودعات وذخائر لا تنفد!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والإنسان يقرأ السورة مرات حتى سورة الفاتحة ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك حتى كأنها تلك الساعة نزلت فيؤمن بتلك المعانى ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ القرآن بتدبر بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه" (٤).

لقد أبدع الشاعر المصري أحمد شوقي بأبيات رشيقة وصف بها كتاب الله، إذ قال:

"جاء النبيون بالآيات فانصرمت * وجئتنا بحكيم غيرمنصرم
آياته كلما طال المدى جدد * يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد في لفظة منه مشرفة * يوصيك بالحق والتقوى وبالرحم"(٥)

إنَّه لا يُمكن للمُسلِمِ تحصيل فهم القرآن وتدبره، إلاَّ بمزيد نظر، وتكرير بصر، وجولان الفكر في آياته، وقد تتبدَّى له معالم من ذلك التدبر، وفوائد زاخرة، فالقرآن كما يقولالإمام الزركشي : "فله على كل كلام سلطان وإمرة، بَهَرَ تَمَكُّن فواصله، وحسن ارتباط أواخره وأوائله وبديع إشاراته وعجيب انتقالاته من قصص باهرة إلى مواعظ زاجرة وأمثال سائرة وحكم زاهرة وأدلة على التوحيد ظاهرة وأمثال بالتنزيه والتحميد سائرة ومواقع تعجب واعتبار ومواطن تنزيل واستغفار إن كان سياق الكلام ترجية بسط وإن كان تخويفاً قبض وإن كان وعداً أبهج وإن كان وعيداً أزعج وإن كان دعوة حدب وإن كان زجرة أرعب وإن كان موعظة أقلق وإن كان ترغيباً شوق.

هذا وكم فيه من مزايا * وفي زواياه من خبايا
ويطمع الحبر في التقاضي * فيكشف الخبر عن قضايا

فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب، لا يستقصي معانيه فهم الخلق، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق، فالسعيد من صرف همته إليه، ووقف فكره وعزمه عليه، والموفق من وفقه الله لتدبره واصطفاه للتذكير به وتذكره، فهو يرتع منه في رياض ويكرع منه في حياض

أندى على الأكباد من قطر الندى * وألذ في الأجفان من سنة الكرى

---

٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية (١٦/٢)

٥) ديوان أحمد شوقي: (١ / ٢٠٤) .

يملأ القلوب بِشراً، ويبعث القرائح عبيراً ونشراً، يحيي القلوب بأوراده، ولهذا سماه الله روحاً فقال: {يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}فسمَّاه روحاً؛ لأنه يؤدي إلى حياة الأبد ولولا الروح لمات الجسد فجعل هذا الروح سببا للاقتدار وعلماً للاعتبار:

يزيد على طول التأمل بهجة * كأن العيون الناظرات صياقل

وإنما يفهم بعض معانيه، ويطلع على أسراره ومبانيه، من قوي نظره واتسع مجاله في الفكر وتدبره وامتد باعه ووقت طباعه وامتد في فنون الأدب وأحاط بلغة العرب"(٦).

هذا كتاب الله ينطق بيننا، فلا عجب من ذلك لأنَّه كلام الله تعالىالمنزَّل لا ينبغي أبداً أن يكون مخلوقاً، ولهذا فلن يعلوه أي بيان ولا معانٍ ولا بديع حروف أو كلمات؛ لأنَّه من عند الله ففيه إبداع وإتقان في كل حرف وكلمة وجملة وسورة بل في كُليّته، ولو كان من عند غيره لوجدنا التناقض الكبير، ومُحال أن نجد ذلك في كتاب الله ولو اجتمع الجن والإنس على ذلك، وفي هذا ينزل الله تعالى على رسولهمحمد صلَّى الله عليه وسلَّم ليتحدَّى الخلق بذلك فيقول الله تعالى له : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾الإسراء: ٨٨.

لقد أحببت أن أُسْهِمَ في هذه الدراسة المختصرة، والمبحث المقتضب، بشيء من الحديث عن مقاصد القرآن وأسراره الكامنة في تدبُّره، فنتعرَّف بداية على أسرار التدبر ومقاصده؛ لننتقل إلى الضفَّة الأخرى وندلف إلى تدبُّر مقاصده وأسراره المودعة فيه بوجه عام، فالمقصد التحقُّق والتدقيق باقتضاب، لا التطويل والشرح والإسهاب والإطناب، فلكل مقام مقال، والله الموفَّق لعباده في كلِّ حال.

إنَّ هذه الدراسة فيها مُحاولة؛ لإبراز قيمتين ذات دلالتين أساسيتين، ويُمكننا أن نقول أنَّ كلاًّ منهما يستفيد من الآخر:

- تدبر القرآن من منظور مقاصدي.
- ضرورة استصحاب المقاصد القرآنية أثناء عمليَّة التدبُّر.

وهما نقطتان رئيسيتان في أيَّة محاولة جادَّة لتفهُّم القرآن وتعقُّله، حتَّى لا نكون ممن قرأ القرآن، لكنَّه قام بهجر الكثير من معالم هجرانه كهجران تدبُّره والعمل به.

وقد جعلت هذا المبحث بمقدمة، وتمهيد وتوطئة، ومبحثين، وخاتمة فيها ذكر نتائج البحث، وأختمه بذكر المصادر والمراجع.

---

[٦] البرهان في علوم القرآن ، الزركشي، (١/٩٦ – ٩٨).

• تمهيد وتوطئة:

وصف وبيان لمقصد تنزيل القرآن: تقدمة لفهم تدبري مقاصدي

لقد أنزل الله تبارك وتعالى على رسولنا محمد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلَّم قرآنا عجباً. جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وبيَّن فيه معالم هذا الدين، وفيه من الحق والقطعيات ما يُثبِّتُ الله به قلوب المؤمنين ويرزقهم به اليقين، وفي هذا التنزيل الحكيم، مقاصد جليَّة في وصفه، وفوائد عظيمة في بيان حقيقته، فكان لزاماً على قاصدي القرآن أن يبعثوا روح القرآن ، ويتعاونوا جميعاً في حمل أثقال القرآن المكتنزة بالمقاصد والحِكَم، واللئالئ والدُّرر، فالقرآن روح أنزله الله لتحيا به أرواح المؤمنين به.

فالله أكبر إنَّ دين محمد * وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمس الهداية للورى * وأبى لها وصف الكمال أفولا
والحق أبلج في شريعته التي * جمعت فروعا للهدى وأصولا
لا تُذكر الكتب السوالف عنده * طلع النهار فأطفئ القنديلا

لقد وصف ربَّنا تبارك وتعالى كتابه الكريم بأنَّه:

١) كتاب مُنزَّل، قيِّم مستقيم، لا اعوجاج فيه، بل هو نذير للناس، وبشرى للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿**ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ (١) قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا (٢)**﴾الكهف: ١ - ٢.

وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ (٤١) لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ (٤٢)**﴾فصلت: ٤١ - ٤٢.

٢) هداية وهدى .

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا (٩) وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا (١٠)**﴾الإسراء: ٩ - ١٠.

وقال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (٢)**﴾البقرة: ٢.

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٥٢)**﴾الأعراف: ٥٢.

٣) كتاب حق.

قال تعالى : ﴿ **سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ (٥٣)**﴾فصلت: ٥٣.

وقال تعالى : ﴿ **وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا (١٠٥)**﴾الإسراء: ١٠٥.

وقال تعالى: ﴿ **وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا (٣٣)**﴾الفرقان: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ ﴾ فاطر: ٣١.

٤) شفاء ورحمة.

قال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا (٨٢) ﴾ الإسراء: ٨٢.

٥) مصدِّقٌ للكتب السابقة.

قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٩٧) ﴾ البقرة: ٩٧.

وقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ (٨٩) ﴾ البقرة: ٨٩.

٦) ذكر وتذكرة.

وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ (١٠) ﴾ الأنبياء: ١٠ .

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٠) ﴾ الأنبياء: ٥٠.

وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢٩) ﴾ ص: ٢٩

وقال تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ (٢) إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ (٣) ﴾ طه: ٢ - ٣

٧) مُبارك.

قال تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ (١٥٥) ﴾ الأنعام: ١٥٥

وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (٩٢) ﴾ الأنعام: ٩٢

وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢٩) ﴾ ص: ٢٩.

٨) النذارة والإنذار.

قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (٢) ﴾ الأعراف: ٢.

٩) بيان وتبيان وبيِّنات.

قال تعالى: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) ﴾ النحل: ٤٤.

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (٨٩) ﴾ النحل: ٨٩

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (٦٤) ﴾ النحل: ٦٤.

وقال تعالى :﴿ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾البقرة: ١٨٥.

وقال تعالى:﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) ﴾العنكبوت: ٤٩.

١٠) بصائر.

قال تعالى:﴿ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) ﴾الأعراف: ٢٠٣.

وقال تعالى:﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٢٠) ﴾الجاثية: ٢٠.

قال تعالى:﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾الأنعام: ١٠٤.

١١) روح.

قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾الشورى: ٥٢.

وقال تعالى:﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ (٢) ﴾النحل: ٢.

١٢) نور.

قال تعالى:﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾الشورى: ٥٢.

وقال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا (١٧٥) ﴾النساء: ١٧٤ - ١٧٥الفرقان.

قال تعالى:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾الفرقان: ١.

١٣) عزيز.

قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ (٤١) ﴾فصلت: ٤١.

١٤) علي حكيم.

قال تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ (٤) ﴾الزخرف: ٣ - ٤.

١٥) علم.

قال تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾البقرة: ١٢٠

١٦) **برهان.**

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾النساء: ١٧٤.

المبحث الأول:

صنوان القرآن بين (تدبُّره) و (مقاصده)

سأتجاوز التعريفات والمطوّلات والمقدِّمات حول أهميَّة علم المقاصد وضرورته والأخذ بتعليل الأحكام في الشريعة ومناقشة كلام المخالفين، فكلُّ هذا سيستغرق الوقت والبحث في قضيَّة باتت معلومة في أذهان الباحثين، ومغروسة في أغلب كتب مقاصد الشريعة وأسرارها.

سأحاول الربط ما بين قضيَّة (مقاصد الشريعة) و (تدبر القرآن) مستخدماً معنى (انفتاح الدلالة) بين هذين المصطلحين، وضرورة الوصل بينهما، لاستخراج معانٍ قيّمةٍ ذات قيمة للمتأمِّل في هذه القضيَّة.

والنَّبع في الصخرة الصمَّاء منبته * والنخل ينبت بين الماء والعجل!

المطلب الأول:

الدلالات اللغوية والاصطلاحيَّة لمعنى (التدبر) و(المقاصد):

١) التدبر:

- **التدبر في اللغة:**

قال ابن منظور: " دبّر الأمر وتدبّره أي نظر في عاقبته وعرف الأمر تدبراً أي بآخره. فتدبر الكلام أي النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة.. والتدبر في الأمر: التفكر فيه"(٧).

وقال الخازن : "أصل التدبر: النظر في عواقب الأمور، والتفكر في أدبارها، ثم استعمل في كل تفكر وتأمل،ويقال: "تدبرتُ الشيءَ" أي: نظرت في عاقبته، ومعنى تدبُّر القرآنِ تأَمُّلُ معانيه،والتفكر في حِكَمِهِ، وتبصُّرُ ما فيه من الآيات"(٨).

يقال: دَبَّر الأمر وتَدَبَّره: أي: نظر وتفكر في عاقبته(٩).

ويقال: اسْتَدْبَرَه: أي: رأى في عاقبته ما لم يره في صدره(١٠).

وبدون تطويل لمعنى التدبر في اللغة، نلحظ أنَّ معناه التفكر والنظر في عواقب الأشياء وأدبارها ونهاياتها.

- **التدبر في الاصطلاح:**

---

٧) لسان العرب، ابن منظور

٨) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن :(١ /٤٠٢)

٩) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري: (٢٨٤/١) .

١٠) تاج العروس، الزبيدي، (٢٨١٣/١) مادة:دبر.

تطرّق العلماء للحديث عن معنى التدبر في الاصطلاح القرآني، ومنه ما قاله الزمخشري:"تدبر الآيات التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يَحْلُ منه بكثير طائل"([١١]).

قال الإمام ابن القيم :"وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مرة بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين"([١٢]).

وقال الشنقيطي:"تدبر آيات هذا القرآن العظيم أي: تصفحها،وتفهمها،وإدراك معانيها، والعمل بها"([١٣]).

وقال الميداني : "التدبر هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة"([١٤]).

ويظهر لي أنَّ معنى التدبُّرالقرآني: "تقليب النظر البصري والعيش الروحي؛ لتأمُّل جملة قرآنية بما فيها من معانٍ ودلالات قد لا تتبدَّى للناظر فيها من البداية، وتحقيق ذلك التأمُّل والتدبُّر بالعمل"

٢) المقاصد:

- **المقاصد في اللغة:**

كلمة (مقاصد) من ناحية لغوية هي جمع : مقصد.

والمقصد: مصدر ميمي مُشتق من (قصد) ومن معاني قَصد: الاعتماد والأم، تقول : قصد الحجَّاج البيت الحرام، إذا أمُّوا تلك الجهة واعتمدوها.

والقصد في لسان العرب وضع لعدة معان منها: الاستقامة، والعدل، والوسط والاعتماد والأَمّ، وإتيان الشيء، والكسر([١٥]).

ولِمَا أنَّ القصد له عدَّة معانٍ مذكورة سابقاً، فإنَّ أهمَّ المعاني المتعلِّقة بمبحثنا، ومواقع هذه الكلمة في لغة العرب:طلب الشيء وإتيانه وأمه في اللسان:"والقَصْدُ إتيان الشيء تقول: قصَدْتُه وقصدْتُ له وقصدْتُ إليه"([١٦]).

وقد رأى ابن جنِّي أنّ أصل "قصد" ومواقعها في كلام العرب: الاعتزام والتوجه والنهوض([١٧]).

---

[١١]) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، : (٤ / ٩٠).

[١٢]) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، دار الكتب العلمية: (١/ ١٨٣).

[١٣]) أضواء البيان ، الشنقيطي، دار الفكر، : (٧/ ٢٥٧)، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

[١٤]) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل ، عبد الرحمن حبنكة الميداني:ص:١٠

[١٥]) لسان العرب، ابن منظور، مادة "قصد" (١٢ / ١١٣ – ١٤٤).

[١٦]) المرجع السابق.

[١٧]) المرجع السابق.

قال ابن فارس : "القاف والصاد والدال أصولٌ ثلاثة، يدلُّ أحدها على إتيانِ شيءٍ وأَمِّه، والآخَر على اكتنازٍ في الشيء"([١٨])ومنه الحديث "كان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله)"([١٩]).

- **المقاصد اصطلاحاً:**

أما حدُ ورسم المقاصد من حيث الاصطلاح الشرعي، فإنَّ أغلب القصد في المصطلحات الشرعيَّة، مُتوجِّه إلى :

(١) النيَّة: حيث (إنَّما الأعمال بالنيَّات) فالأمور بمقاصدها.

(٢) الإرادة.

(٣) الحكمة.

ومن أجمل التعريفات العامة للمقاصد، وهو تعريف جامع لولا أنَّه طويل!

ما عرَّف به العلاَّمة محمد الطاهر بن عاشور؛المقاصد قائلاً:"مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة، فيدخل في هذا أوصاف الشريعة وغايتها العامة والمعاني التي لا يخلو التشريع عن ملاحظتها، ويدخل في هذا أيضا معاني من الحكم ليست ملحوظة في سائر أنواع الأحكام، ولكنها ملحوظة في أنواع كثيرة منها "([٢٠]).

وقد طالعتُ أكثر من عشرين تعريف لمقاصد الشريعة، ووجدت أنَّ كثيراً منها لا يخلو من نقد، ورأيت أنَّ أقرب التعريفات للمقاصد خصوصاً فيما يتعلَّق بمبحثنا الحالي، تعريف د. نور الدين بن مختار الخادمي، إذ قال :"المقاصد: هي المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها سواء أكانت تلك المعاني حكما جزئية أم مصالح كلية أم سمات إجمالية ، وهي تتجمع ضمن هدف واحد هو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين"([٢١]).

وقد وجدته مناسباً لكونه تعريفاً مُختصراً، ومُعتصراً، وعاماً، وجامعاً، ومتّسعاً، ومستوعباً، ومُذكِّراً للناس أجمعين بأنَّ الهدف النهائي لذلك كُلِه القيام بعبوديَّة الله ربِّ العالمين؛ لينال العبد مصلحته في الدنيا والآخرة، وقلَّ أن وجدت تعريفاً بمثل هذا الشمول والاتِّساع.

---

[١٨] مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الجيل، (٣/٩٥) .

[١٩] صحيح الإمام مسلم ، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لااله الا الله، رقم الحديث (٩٧).

[٢٠] مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص٥١.

[٢١] الاجتهاد المقاصدي: نور الدين الخادمي، (١/ ٥٢ – ٥٣).

المطلب الثاني:

مقاصد التدبر القرآني

إنَّ العيش في ظلال القرآن نعمة عظيمة، لا يعرفها إلاَّ من تفيَّأ ظلالها، وقطف ثمارها، وذاق طعمها، ومن أقبل على تدبر كتاب الله تبارك وتعالى فسيجد ما فيه من عظيم المعاني والعظات، وجميل العبر والدلالات، ما يأخذ بلب كل ذي لب، وينبهر كُلُّ من تروق له القراءة في الكتب .

لا زلت أفكِّر طويلاً ومليًا في الحديث الصحيح الذي رواه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : "لا تَكْتُبُوا عَنِّي وَمَنْ كَتَبَ عَنِّي غَيْرَ الْقُرْآنِ فَلْيَمْحُهُ وَحَدِّثُوا عَنِّي وَلا حَرَجَ"([٢٢]).

معلومةٌ أقوال العلماء في ذا الحديث، فما كان صلَّى الله عليه وسلَّم يُحبُّ أن يُكتب عنه، حتَّى يستقي الصحابة الينبوع الصافي أولاً؛ كتاب الله تعالى(الوحي المتلو)، ولا يُزاحمه أي شيء في الكتابة حتَّى لو كان بياناً للقرآن كالسنَّة النبويَّة المطهَّرة (الوحي غير المتلو)؛ لكي لا تتداخل الكتابة فيختلط كلام الرحمن: (القرآن) بكلام رسول الله محمد صلَّى الله عليه وسلَّم : (السنَّة).

لقد جاء الإذن بالكتابة لأحاديث المصطفى محمد صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لكنَّ التربيَّة التي تربَّاها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، لم تكن كتربية غيرهم، إذ القرآن يتنزّل على رسول الله، ويقوم صلَّى الله عليه وسلَّم بتعليمهم كتاب ربِّهم المنزَّل من قريب، ويشرح لهم رسول الله شيئاً مِمَّا أجمله القرآن الكريم، فكان الصحابَّة يعدُّون كتاب الله تعالى الموجِّه الرئيس، والرسول صلَّى الله عليه وسلَّم هو الشارح والمبيِّن لكتاب الله، فلم ينشغلوا بكتب أخرى، ولا أفكار مختلفة بل كان انصبابهم على تلاوة القرآن وتدبُّره وفقه مقاصد تدبُّره، ولهذا نجد في سيرة الصحابة من مواقف التدبر، وكلمات في تدبر النصوص القرآنية، وتأمَّلاتهم الرائقة، ما يشعرنا ويشي لنا أنَّ الصحابة الكرام صنعهم الله تعالى على عين رسوله صلَى الله عليه وسلَّم، وربَّاهم فأحسن تربيتهم عليهم الرضوان جميعاً.

إنَّ كتاب الله المنزّل مزلزل لكل فؤاد يصدّ عن طريق الهدى، وينحرف إلى طريق الغي والهوى، وبإطلالة سريعة على قوله تعالى : ﴿ **وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾** ﴾**الطارق**: ١١ - ١٤نرى القسم الربَّاني بالسماء والأرض وهما من مخلوقاته العظيمة، متحدِّثاً عن الأرض التي تنصدع حين نزول المطر بالنبات الذي ينشقُّ عنها، أنَّ هذا القرآن (قول فصل) و (ما هو بالهزل)؛ ليعلم الناس أنَّ القرآن الكريم يصدعُ القلوب، التي إن وقر الإيمان فيها، ستُخرج هذه القلوب من ثمرات تدبُّرها لكتاب الله، ما توقن حقاً أنّ القرآن الكريم فاصل بين الحق والباطل، وأنَّه كتاب لم ينزل كي نُطالعه كما نُطالع غيره من الكتب والقراطيس التي تُكتب بُكرة وأصيلا!

---

[٢٢]) صحيح الإمام مسلم ، الزهد والرقائق، رقم : (٥٣٢٦).

إنَّا إن استشعرنا معنى أنَّ القرآن كلام الله تعالى؛ لما تركنا مُطالعته ومدارسته أبداً، فكتاب الله تعالى هو القاضي على جميع الكتب، ولا ريب أنَّ أشرف الكتب على الإطلاق هو كتاب الله تعالى، فشرف العلم بشرف المعلوم، فمن كان له قلب سيلقي السمع وهو شهيد لهذا الكتاب العزيز، ويقوم بما أمره الله تعالى به قياماً لا يُقعده عنه حتَّى يُوسِّد داخل قبره!

قال أبو منصور الثعالبي:"من أراد أن يعرف جوامع الكلم، ويتنبه على فضل الإعجاز، ويحيط ببلاغة الإيماء ويفطن لكفاية الإيجاز؛ فليتدبر القرآن الكريم وليتأمل علوه على سائر الكلام"([٢٣]).

وإذا كان لكلام أي شخص معانٍ ومقاصد، فإنَّ لكلام الله تعالى – وله سبحانه وتعالى المثل الأعلى – في القرآن المجيد مقاصد عظيمة، وأسراراً لطيفة، ومعانٍ مُفيدة، ولا يمكن أن نعرف معاني القرآن الكريم حقَّ المعرفة إلاَّ بتدبر ما فيها، فإنَّ من مقاصد نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم حسن التدبر لكتاب الله تعالى، حيث يُحسِنُ المرء تفهّم كتاب الله، ويكون ذلك طريقاً لمعرفة غايات القرآن ومقاصده، ولعلَّه من المقاصد الحقيقيَّة لتدبُّر القرآن الكريم.

إنَّ ما أفهمهمنقضيَّة التدبر في مقاصد القرآن أنَّه : تقليب الفكر، وإطراق البصر بأناة وتؤدة؛ للنظر في بصائر القرآن بقلوب يقظة، ومحاولة استكشاف بعض أسرار الكنوز المخبَّأة والمودعة داخل النصوص القرآنية ومكنوناتها التي تخفى عن الأبصار لأول وهلة؛ عبر حقيقة العرفان القلبي بأوجه البرهان العقلي؛ للوقوف على أماكن النفع واللطائف القرآنية، بتعامل اجتهادي إبداعي؛ تنبعث منه حيويَّة النص وفائدته في كلِّ زمان ومكان.

وما دمنا قد قدَّمنا بهذه المقدِّمة ذات الأهميَّة، فلنشرع في الحديث عن المقصود، فإنَّ أسرار التدبر ومقاصده، يُمكن ذكرها على عدَّة نقاط، على النحو الآتي:

١. القيام بعبادة التدبّر التي حثَّ عليها القرآن:

لقد حثَّ كتاب الله تعالى على قراءة القرآن قراءة فيها حياة للقلوب، وتبصرة للأفئدة، لا أن يقرأ الشخص كتاب الله كهذرمة الأموات، أو أن يُهذّه كهذِّ كثير من الأعاجم الذين يقرؤون القرآن بالعربيَّة ولا يعون معانيه، فيُشْبِهُ بعض العرب كثيراً من الأعاجم؛ فكأنَّ قراءتهم للقرآن قراءة أعجميَّة؛ لم تستنطق من مطالعتهم لكتاب الله شيئاً من المعاني، ولم تستنطق ألسنتهم شيئاً من الآثار والمباني، فكأنَّهم أميُّون وإن كانوا يُحسنون القراءة بالعربيَّة، فلقد قال تعالى عن أمثالهم: ﴿ **وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨** ﴾البقرة: ٧٨.

إنَّ القرآن الكريم من أعظم مقاصد نزوله على سيدنا محمد رسول الله صلَّى الله عليه أن يتعبَّد الله تعالى بالقراءة المتدبِّرة، ؛ كما جاء في القرآن الكريم في أربعة مواضع :

---

[٢٣]) الإعجاز والإيجاز، أبو منصور الثعالبي، ص(١٠).

- الموضع الأول:

قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ص: ٢٩وهي آية مكيَّة.
فقد بيَّن تعالى أنَّه أنزل القرآن على محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم، ونبَّهت هذه الآية أنَّ القرآن الكريم أنزله الله تعالى؛ (ليدبروا آياته) واللام هنا لام تعليل، أي: أنَّ القرآن نزل لتدبر آياته، وستصيب بركته من تدبّر نصوصه وآياته، أكثر مِمَّن قرأ القرآن فحسب دونما تدبُّر!

وبيَّن عزَّ وجل أنَّه أنزل القرآن (ليتذكر أولو الألباب) ففي هذا الكتاب تذكيرٌ لهم بالأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، ومصير المؤمنين، ومصير الكافرين، وأحكام الحلال والحرام، وقضايا الأخلاق والآداب، وحِكمٍ وأحكام، وقصص للأنبياء والقرون السابقة، جامعاً بين الوعد والوعيد، بأسلوبي الترغيب والترهيب.

أو أن يكون معنى الآية أنَّالله تعالى أنزل القرآن؛ ليتدبَّر، ثمَّ عطف التذكر على التدبر؛حتَّى تتذكر القلوب المعرضة، والأفئدة الغافلة، ما في هذا الكتاب من وعد ووعيد، وترغيب وترهيب،فذكر الخاص (وليتذكَّر) بعد العام؛ لأهميَّة الخاص، كقوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾الفاتحة: ٥فذكر الاستعانة بعد العبادة لأهميَّة الاستعانة؛ ومعلوم بداهة أنَّ الاستعانة نوع من أنواع العبادة.

- الموضع الثاني:

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾المؤمنون: ٦٨وهي آية مكيَّة.
وفيه حثٌّ على تدبُّر القرآن لعموم الناس، والإزراء بأولئك القوم الذين جمدوا على منقولات قومهم ومعقولات رأيهم، وزعموا أنَّ هذا القرآن أتاهم بغير ما أتاهم بهم آبائهم الأسبقين؛ فصُرِفوا عن تدبُّره عناداً واستخفافاً بحقِّه!

- الموضع الثالث:

قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾النساء: ٨٢وهي آية مدنيَّة.

في الآيةدعوة إلى التدبر والقيام بهذه العبادة المأمور بها؛ لنتبيَّن أنَّ كلُّ الكتب الأخرى سيكون فيها اختلاف واضطراب، ما عدا كتاب الله تعالى، وسنقف معها وقفات مُطوَّلة بعد عدَّة صفحات.

- الموضع الرابع:

في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾محمد: ٢٤وهي آية مدنيَّة.
فإمَّا أن يختار العبد التدبُّر وأمّا أن يغلق على قلبه بالأقفال، وللمرء بعدها أن يختار ويتَّخذ القرار!

هما طريقان ما للمرء غيرهما * فانظر لنفسك ماذا أنت تختار!

إنَّ كلّ قسوة في القلب توجب زيادة الأقفال، وكلران منطبع على القلوب، موجب للإغلاق في الفهم القرآني، وحالما يكون القلب كذلك فسيستنكفُ عن الاستماع وحسن الإصغاء والتدبر للقرآن الكريم،ونلحظُ أنَّ أولئك القوم قال تعالى عنهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ٢٣ ﴾محمد: ٢٣فإنَّهم قوم ينالهم لعنة الله!

ثمَّ قال عزَّ وجلَّ:{أفلا يتدبَّرون القرآن أم على قلوب أقفالها} فمن يتدبَّر القرآن سيفتح الله على بصره وبصيرته، ويجعل أذنه تسمع القرآن للفائدة والاستجابة، ويهديه الله بهدايته التامَّة، فيكون قلبه منشرحاً لذلك؛ لأنَّ الأقفال لم تغلق مفاتيح القلوب السليمة، فإنَّ صحَّة التدبَّر لكتاب الله تعالى مستلزم سلامة القلب وصلاحه واستقامته.

إنَّ من أعظم أسباب أقفال التدبُّر وموانعه؛ الإعراض عن الأوامر والنواهي، وارتكاب ما حرَّم الله من الفواحش والمعاصي،فعلى المتدبر للقرآن أن يحذر من كثرة المعاصي فالله تعالى سيحرم العصاة من كنوز كتابه ، فهو القائل :﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ ﴾الأعراف: ١٤٦قال سفيان بن عيينة في قوله: {سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق} قال : "أنزع عنهم فهم القرآن ، وأصرفهم عن آياتي"(٢٤)

فصاحب المعصيَّة الذي استغرقته من جميع النواحي؛ لا يستطيع التدبُّر لكتاب الله تعالى، ولن يقدر على تذوُّق حلاوة القرآن ، ولن يرتاض في باحة علومه، ولن يدخل بابة فهمه؛ والعلَّة معروفة!

ولذلك نظم أحد الشعراء بيتاً رائقاً فقال:

تَرَى عَيْنُهُ مَا فِي الْكِتَابِ وَقَلْبُهُ * عَنِ الدِّينِ أَعْمَى وَاثِقٌ بِقُفُولِ

فعلى من يريد التدبُّر لكتاب الله تعالى، الحذر من المعاصي؛ فتدبر القرآن نور يقذفه الله في قلب المؤمن، وسيفقد المرء هذا النور شيئاً فشيئاً، حين يكثر من الذنوب التي تميت القلوب ويورثه الذل إدمانها، وما وجد أهل العلم من شيء يُحرمُ المرء في فقهه وفهمه لكتاب الله كما وجدوا في الذنوب والمعاصي، وبيَّنوا أنَّ هذا العلم نور ونور الله لا يؤتى لعاص.

إنَّ المرء حين يرتكس في أوحال الذنوب، وتتناوشه براثن المعاصي، ربما يُدرك كم ستحرمه ذنوبه، من الخير الوفير في لطائف تدبر الكتاب القدير، ويكتشف بنفسه أنَّ للذنوب والمعاصي دورا كبيرا في الإقفال على القلوب، ومفتاح التدبر طاعة الله والقرب منه، ولن يفهم العبد كلام أي شخص على النحو الذي يُراد حتَّى يقترب منه ويعرف معاني كلامه، ولله سبحانه المثل الأعلى، فلن يتعرَّف المرء على معاني آياته إلاَّ باللجوء إلى الله والتضرع بين يديه، ولنتامل هذه الآيات :قال تعالى:﴿ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ

---

٢٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: (٣ / ٤٧٥)

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾الأنعام: ٢٥، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾الكهف: ٥٧.

إنَّ الآيات الأربع المتعلِقة بالتدبُّر، تُمثِّل وحدة موضوعيَّة حول طبيعة إنزال القرآن وتنزُّله على أمَّة الإسلام؛ وذلك أنَّ القيام بعبادة التدبر مسؤولية جميع المسلمين؛ بل خطاب الحث علىالتدبُّر في بعضالآيات عام للناس جميعاً؛ ليتعرَّفوا على دقائقه وحقائقه، فمن قام بذلك فلقد قام بهذه العبادة المطلوبة، ومن تنكَّب طريقتها، فإنَّه لا يمكنه التلذذ بقراءة القرآن، ولا الشعور بمعانيه ولطائفه، فلن يتحصَّل هذا إلاَّ بتكريس النفس على معاني التدبر.

إنَّ مما يؤسف له أن نجد جمعاً من طلبة العلم يهتمون بحفظ القرآن والحرص على قراءته بالتجويد والترتيل والقراءات السبع، ولكنّهم لا يجعلونلأنفسهم حظاً ولا نصيباً من تدبر القرآن وتفهُّم معانيه وتحديق البصر وإعمال الفكر في أسراره، ولئن عُدَّ طلب العلم عبادة بمعرفةأحكام الفقه والحديث، فإنَّ شرف العلم بشرف المعلوم، ولا أشرف من العلم بكتاب الله تعالى وتدبر معانيه.

يقول ابن القيم – رحمه الله – :" فما أشدها من حسرة، وما أعظمها من غبنة على من أفنى أوقاته في طلب العلم، ثم خرج من الدنيا وما فهم حقائق القرآن، ولا باشر قلبه أسراره ومعانيه، ولا يكون هذا إلا عن طريق التدبّر"(٢٥).

إذا قسا القلبُ لم تنفعهُ موعظ * كالأرض إن سَبِخَت لم ينفعِ المطرُ

وإنَّ أعظم رزيَّة للعبد أن يكون قلبه ساهيا غافلا لاهيا، فلا يقرأ القرآن قراءة تدبر وتبصُّر وتفكُّر، ولربَّما يستمع للقرآن، لكنَّه لا ينصت إنصات المستمتع المتدبر لكتاب الله ، فلا ينال حظاً من معنى التدبر ولا يتذوق حقيقته، فيحق فيه قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾الأنبياء: ٢ - ٣.

لقد امتدح الله تعالى الذين يتعقَّلون مراد الله، ويتدبَّرون معانيه، فقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾الفرقان: ٧٣.

يقول الإمام ابن كثير – رحمه الله – :أَيْ : لَمْ يَكُونُوا عِنْدَ سَماعِهَا مُتَشَاغِلِينَ لَاهِينَ عَنْهَا، بَلْ مُصْغِينَ إِلَيْهَا، فَاهِمِينَ بَصِيرِينَ بِمَعَانِيهَا؛ فَلِهَذَا إِنَّمَا يَعْمَلُونَ بِهَا، وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهَا عَنْ بَصِيرَةٍ لَا عَنْ جَهْلٍ وَمُتَابَعَةٍ لِغَيْرِهِمْ أَيْ يَرَوْنَ غَيْرَهُمْ قَدْ سَجَدَ فَيَسْجُدُونَ تَبَعًا لَهُ"(٢٦)

---

٢٥) بدائع الفوائد، ابن القيم : (١/ ٢٠١) .

٢٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، : (٧/٩٤) .

إنَّ العبد حين يشعر أنَّ قلبه ليس متذوقاً لمعنى التدبُّر، فعليه أن يتفقَّد إيمانه بالله تعالى؛ فإنَّه يُخشى عليه من حالة الموات التي لا يشعر بها الإنسان؛ والموفَّق من وفقَّه الله لإطلاعه على عيوبه وعدم غفلته عنها، لهذا كان أهل العلم يوصون بالتفتيش في القلب عند بعض المواطن التي لا تحتمل إلاَّ الخشوع والتأثر.

٢. إحسان التلاوة، وفقه طرقتلاوة القرآن.

في قوله تعالى:﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) ﴾المزمل: ٤دليل واضح على أهميةترتيل القرآن، والقيام بأحكام قراءته كما أُنزل على رسولنا محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، ولقد وقف مع الآية عدد من العلماء وبيَنوا مقصدها، فلقد قال ابن عباس —رضي الله عنهما-: "يقرأ آيتين، ثلاثة، ثم يقطع، لا يُهَذرِمِ"(٢٧).
وعن حذيفة رضي الله عنه قال: "صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة. ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة؛ فمضى. ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ"(٢٨).

قال الإمام القرطبي:"وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن، ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذِّ، إذ لا يصح التدبر مع الهذ"(٢٩).

لقد تحدَّث الأديب مصطفى صادق الرّافعي عن طريقة قراءة القرآن بأسلوب يشرح فيه أوجه التدبر، فقال:"تدَبُّر الألفاظ على حروفِها وحركاتِها وأصالتِها ولحونِها ومناسبة بعضِها لبعض في ذلك والتّغَلْغُل في الوجوه التي من أجلها اختير كلّ لفظ في موضعه، ثمّ النظر في روابطِ الألفاظِ والمعاني والحروف والصِّيَغ الّتي أُقيمَت عليها اللُّغة، ووجه اختِيار الحرف، أو السّورة، ثمّ طريقة النّسق والتّرك في الجملة، ووجه الحذف أو الإيجاز أو التّكْرار .. ونحوِها مِمّا هو خاصٌ بهذه الطَّريقة حسبما ما تُوَجِّهُهُ المعاني؛ فإنَّ كُلَّ ذلك في القرآن على أتمه"(٣٠).

وحين كان جبريل – عليه السلام –يقرئ رسولنا الأكرم محمد صلَّى الله عليه وسلَّم القرآن،وكان عليه الصلاة والسلام يُبادر جبريل ويُسابقه بالقراءة معه، نهاه الله تعالى عن ذلك، وقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩) ﴾القيامة: ١٦ - ١٩وقال تعالى:﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا (١١٤) ﴾طه: ١١٤، فالتلاوة المتأنِّية الصحيحة هي المطلوبة بنصِّ القرآن،والله عزَّ وجل شاهد على هذه التلاوة، وحسن أداء

---

٢٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور :(٣١٣/٨)

٢٨) صحيح الإمام مسلم : (٧٧٢).

٢٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (١٢٦/١٨) .

٣٠) إعجاز القرآن، الرافعي: (ص:٢٥٩)

القارئ فيها،فهو القائل:﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا ﴾يونس: ٦١.

إنَّ كثيراً مِمَّن يقرأ كتاب الله تعالى يهذَّه هذاً وينثره كما ينثر المزارع الدقل من التمر، ويُسرع في مطالعته، ولا يُرتِّله ترتيلا، ولا يُجوِّده كما أتى عن الرسول محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا يُحسن التغني به، ولا يعرف الوقف والإبتداء، ولا أحكام القراءة، أو أحكام التجويد، مما يدلُّ ذلك على عدم معرفة فقه التدبر والتأمل، فعليه أن يتعلَّم أدب وأحكام التلاوة ويُحسن الأداء في القراءة بالتأني والتمهل وعلى مُكث، وحينها سيشعر بتلك الوقفات النبيلة في تدبُّره للقرآن الكريم.

أمَّا من أراد أن يقرأ القرآن وهو ينظر إلى آخره متى سينتهي منه ويختمه، فإنَّه يندر أن تتحصَّل لديه حقيقة التدبُّر، وفي هذا يقول المفسِّر ابن عطية:"وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذاً أفضل من الهذِّ إذ التدبر لا يكون إلا مع الترتيل"(٣١).

لقد كانت قراءة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم متأنيَّة مُترَسِّلة، فقد روى أنس –رضي الله عنه– أنه سئل عن قراءة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: "كانت مدّاً" ثم قرأ {بسم الله الرحمن الرحيم} يمد "الله"، ويمد "الرحمن" ويمد "الرحيم"(٣٢)، فكان عليه الصلاة والسلام يتأنَّى في قراءته القرآن، بل قد يقف أحياناً مع آية يُحسن تلاوتها وتأمُّلها وتدبُّرها، مع ترديدها وتكريرها.

وقد بوّب الإمام ابن خزيمة في صحيحه: (باب إباحة ترديد الآية الواحدة في الصلاة مراراً عند التدبر والتفكر في القرآن)(٣٣)، وذكر في الباب طائفة من الأخبار المتعلقَّة بذلك.

وروت جسرة بنت دجاجة قالت: سمعت أبا ذر يقول: قام النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بآية حتى أصبح يرددها، والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨ ﴾المائدة: ١١٨(٣٤).

وإذ أدرك أهل العلم أهميَّة القراءة المتأنيَّة، فإنَّهم قد أنكروا القراءة السريعة التي لا يُرتجى من خلفها وقوف مع آية، ولا تبصُّر فيها، أو فقه وفهم لها، وحثُّوا على الوقوف مع آيات القرآن، وألاَّ يكون همُّ أحدهم آخر السورة، أو آخر المصحف، لمجرِّد عدَّ الختمات!

قد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي وائل قال جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذا الحرف ألفا تجده أم ياء {من ماء غير آسن} أو {من ماء غير

---

(٣١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي: (٤/ ٥٠٣)

(٣٢) صحيح الإمام البخاري: (٤٧٥٨).

(٣٣) صحيح ابن خزيمة، المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م (١/ ٢٩٩) رقم الباب:(١٢١)

(٣٤) أخرجه النسائي في السنن الكبرى :(١٠٨٣)، وأحمد: (٢١٤٢٥) والحاكم في المستدرك رقم (٨٧٩) وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح رقم (١٢٠٥)، وحسنه في صحيح سنن النسائي رقم (١٠١٠).

ياسن} قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا ؟ قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة فقال عبد الله: هذا كهذ الشعر! إن أقواما يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه"(٣٥).

وعن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء وهي تقرأ:﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ قال:فوقَفَتْ عليها فجعلت تستعيذ وتدعو، فذهبتُ إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد تستعيذ وتدعو"(٣٦).

فهكذا كان حال رسول الله محمد صلَّى الله عليه وسلَّم، وطريقة الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، والتابعين ومن تبعهم بإحسان من سلف هذه الأمَّة الأكارم، يقفون عند الآية، ويتفكَّرون ما فيها، ويتبصَّرون معانيها، بل من لطائف أسرار التدبُّر، أن يكون للمتدبِّرين كلامَ ربِّ العالمين شعور رائع، إنَّه:

٣. التأثُّر برقَّة القلوب وخشوع الأجساد:

إنّ قارئ القرآن لا يمكنه أن يتذوّق معاني القرآن دون أن يحسن تدبر مطالعته؛ لأنَّه إن كان صاحب قلب يقظٍ؛ فلن يجد هذا الكتاب إلاَّ مؤثراً عليه قلباً وقالباً، فحينما يتدبَّر المرء كلام الله تعالى، يجد حالة انفعال في قلبه وجوارحه، ففؤاده (قلبه) يرقُّ وتُصاب هذه القلوب بالوجل والخشية، و جسده (قالبه) يقشعر ويخشع، وجوارحه لكلام الله تخضع، وفقاً لما قاله تعالى:﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾الزمر: ٢٣.

حين تَلَا قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ:{تقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} قال:"هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله بأن تقشعر جلودهم ، وتبكي أعينهم ، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان"(٣٧).

لنتأمّل هذه الآيات الكريمات الموضّحة لذلك فلقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾الأنفال: ٢وأي ذكر لله أعظم من أن يُذكر كلامه ويقرأ؟ بلأي كتاب فيه من ذكر الله كما في كتاب الله تعالى؟

إنَّ القرآن الكريم لو نزل على الجبال لتصدَّعت منه خشية لله، فالله تعالى يقول: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾الحشر:

---

٣٥) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ وهو الإفراط في السرعة وإباحة سورتين فأكثر في ركعة : (٨٢٢).

٣٦) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الصلاة، من أبواب صلاة التطوع، : (٥٨٨٣).

٣٧) تفسير ابن كثير : (٧/ ٩٥).

٢١فخليق بأهل القلوب الحيَّة اليقظة أن يخشعوا لله حينيُطالعوا القرآن ويتدبَّروا ما فيه من معانيه العظام، ومقاصده الجسام، ولقد صدق إبراهيم التيمي: "من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق ألا يكون أوتي علما؛ لأن الله نعت العلماء فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ (١٠٩)﴾الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩(٣٨).

لذلك كان أصحاب النبي إذا قرئ عليهم القرآن تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم، وهو ما يتأتَّى لمتدبِّر القرآن حيث يشعر بذلك التأثر الرائع، وتلك الخشية الوَجِلَة، الموقظة للقلوب، لكن إن لم يشعر المرء بتأثُّر أثناء تدبُّره للقرآن فليتفقَّد إيمانه، وعليه أن يعلم أنَّ قلبه ميت أو يكادأن يكون كذلك، فيحذر من قراءة القرآن وهو عليه عمى – عياذاً بالله – كما قال أولئك القوم: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥)﴾فصلت: ٥.

وما حصل ذلك الموات القلبي إلاَّ لقسوة سابقة في القلب أماتته، فليس له من سبيل إلاَّ أن يُحييه بتلاوة القرآن وتدبّره آناء الليل وأطراف النهار، وفي هذه الآية برهان ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ (١٦) ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧)﴾الحديد: ١٦ - ١٧

لقد كانت هذه الآيةسبباً في هداية وتوبة قاطع طريق، حتَّى صار يُدعى بعد هدايته الإمام عابد الحرمين الفضيل بن عياض، فقد عشق جارية فواعدته ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها إذ سمع قارئا يقرأ: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} فرجع القهقرى وهو يقول: بلى والله قد آن فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعه من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلاً يقطع الطريق، فقال الفضيل: أواه ! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك،وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام(٣٩).

والمتدبر لكتاب الله تعالى سيلحظ فيه معنى حقيقيا في الربط بين التدبر والخشية والعلم، وهذا قلَّ أن يكون في أي مستوى معرفي بشري ؛ إلاَّ أن يكون ذلك في الوحي (القرآن الكريم).

وطالما استشعرت آيتين عظيمتين تحثَّان الخلق جميعًا على العلم، وتُبَيِّن فَضْلَه وارتباطَ العلم بخشية الله تعالى، كلَّما طالعتهما يَتَبَدَّى لي منهما معنى عظيمٌ، وحقيقةٌ كبرى في هذا الكون وهذه الحياة، عن سر ارتباط الخشية بالله بالعلم .

---

٣٨) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني: (٥/ ٨٨).

٣٩)الذهبي، تاريخ الإسلام، (١٢/٣٣٤)، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي : (١٧ / ٢٢٧).

يقول الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾الزمر: ٩.

إنَّ الآية تُبيِّن أهميَّة العلم؛ لكن مع مزيد تدبُّر تنتفح لنا معان مختلفة في دلالاتها حينما نرى سباقها ولحاقها وسياقها وعلامَ يدل؟

فلنقرأ هذه الآية ونتفَّهم سياقها الوارد فيها، فلقد قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} بعد أنْ قال: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}.

لقد أثنى تعالى على العلم الحقيقي الذي يسوق صاحبه إلى الصواب،حيثتكمن جوهرة علمه بالعلم بالله، وبالعمل بما يرضيه؛ وذلك بالقنوت آناء الليل ساجدًا وقائمًا، خاشعًا لله تعالى، خائفًا من أهوال يوم القيامة، يرجو ما عند الله من رحمات ومغفرة، وبهذا يتجلَّى لنا أنَّ غاية العلمُ الحقيقيُّ الإقبال على الله بالصلاة والذكر والدعاء، وتتقلَّبَ بين خوفك منه تعالى ورجائك منه، وهذا حقيقة التوحيد ولب العبادة، وهو سرٌّ لطيف يجده العبد حينما يتدبَّر القرآن، ويتأثَّر بتلاوته.

وإلى آية أخرى في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾فاطر: ٢٧ - ٢٨.

إنّني أرى أنَّ من الفهم الضيق لهذه الآية قصْرها على علماء القرآن والسنَّة فحسب، وإن كان أهل العلم بالقرآن والسنَّة على رأس العلماء، فشَرَف العلم بشرف المعلوم، لكنَّني أعتقد أن معنى الآية أوسع وأشمل من ذلك، ففيها إعجاز دلالي عظيم رهيب!

فالآية تتناول – والله أعلم – العِلْم بأشياء كثيرة؛ منها: العلم بالكون، والعلم بالماء، والعلم بالنبات، والعلم بطبقات الأرض، والعلم بالمناخ، والعلم بالإنسان، والعلم بالحيوان، فكلُّ هاتِه العلوم من علِمها وانتفع منها فسيزيده ذلك العلم تمام الخشية من ربه؛ لعجائب تلك الآيات، وسر وجودها، فتورث صاحبها استحضار عظمة الرب – تبارك وتعالى – ومزيدًا من الإيمان به؛ لذا قال تعالى:{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّة ما نصُّه:"قوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالِمٌ؛ فقد أخبر الله أنَّ كلَّ مَن خشِي الله فهو عالِم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ﴾الزمر: ٩"(٤٠).

---

٤٠) مجموع فتاوى ابن تيمية: (٢١/٧)

ذكر الأستاذ: وحيد الدين خان موقفاً عن الدكتور الهندي عناية الله المشرقي أنه قال: كنتُ أدرس في كمبريدج، وذات يوم كانتِ السماءُ تمطر بغزارة، فخرجت من بيتي لقضاء حاجة، فإذا بي أرى الفلكي المشهور "السير جيمس جينز" ذاهبًا إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدَنَوْتُ منه وسلَّمْتُ عليه، فلم يَرُدَّ عليَّ، فسَلَّمْتُ مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلتُ له: أريد أن أسألك عن شيئين:

الأول: لماذا لا تَفْتَح مظلتك رغم نزول المطر؟!

فابتسم السير جينز، وفتح المظلة.

وأمَّا السؤال الثاني: فلماذا تذهب إلى الكنيسة وأنت عالمٌ كبيرٌ ذائع الصيت؟!

وهنا توَقَّف العالِمُ الكبير لحظةً، ثم قال لي: نلتقي معًا هذا المساء لنناقشَ هذه القضية، فذهبتُ إليه في الموعد المحدد، فسألني على الفور: ماذا كان سؤالك لي في هذا الصباح؟

ودون أن ينتظرَ مني جوابًا، بدأ يتكَلَّم عن الكون ونظامه الدقيق المدهش، وعن الكواكب في السماء ونظامها العجيب المحْكَم، وعن المجرَّات وأبعادها اللا متناهية، وطوفان أنوارها الباهرة، فنظرْتُ إلى العالم الكبير فإذا به يبكي، ويداه ترتعدان من خشية الله!

ثم توقَّفَ فجأةً، وبدأ يقول: عندما ألقي نظرةً على روائع خلق الله يبدأ كياني يهتَزُّ مِن الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله، أقول : إنك لعظيم، أحس بسعادة تفوق كل سعادة!

فقلتُ له: لقد تأثَّرْتُ كثيرًا بما قلتَ، فهل تسمحُ لي بقراءة آية مِن آيات كتابي المقدس (القرآن)؟

فأجاب المستر جينز: بكل سرور تفضل..

فقرأتُ عليه قولَه سبحانه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾** ﴾فاطر: ٢٧ - ٢٨

وما كدتُ أتوقَّف حتى صرَخ السير جينز قائلاً: ماذا قلت؟{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}؟!مدهش، غريب، عجيب جدًّا! مَنْ أنبأ محمدًا بهذا؟ هل هذه الآيةُ في القرآن حقًّا؟ لو كان كما تقول فاكْتُبْ شهادة عنِّي: أن القرآن وحي من عند الله!لقد كان محمَّدٌ أميًّا، ولا يمكن أن يكشفَ هذا السر بنفْسِه، فالله هو الذي أخْبَرَه بهذا السِّرّ؟!"(٤١).

هذا موقف يتبيَّن لنا فيه أنَّه لربَّما لم تتجلَّحقائق الإيمان لكثير من المسلمين، كما تتجلَّى لعبد تجرَّع علقم الكفر، وكان لديه شيء من العلم بالكون والحياة، فيدلُّه ذلك على الإيمان بالله، فتراه حينها يتعلّق بالوحي كتاباً وسنَّة أكثر من المسلمين الذين يقرؤون القرآن قراءة الأمِّيين !!

---

٤١) الإسلام يَتَحَدَّى، وحيد الدين خان، ص ١٥٢ – ١٥٣

ومثل هذه الدائرة المتّسعة في بيان شيء من مقاصديَّة التدبُّر، تعطينا دلالة على أنَّ التدبر للقرآن سجلب لنا (الخشوع العبادي) بطاعة الله والقنوت والعبادة، و(الخشوع المعرفي) بأن يجرّ فهم القرآن من كان لديه علم بشيء من الكون والطبيعة التي خلقها الله، فإنَّه سيكون في خشية لله حينما يرتبط بكتابه ويتعَّرف على معانيه، وهكذا كان الصحابة؛ فلقد سأل عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء رضي الله عنهما: كيفكان يصنع أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وسلم إذا قرؤوا القران؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى: تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم"(٤٢)

٤. نيل العلم ،والفقه في الدين:

لن يستطيع المرء أن يقف على الأحكام الشرعيَّة، ويُحسن فقه الاستنباط منها، إلاَّ بمزيد من فقه التدبَّر الحقيقي للقرآن الكريم الذي يوصل المرء إلى الأحكام المتعلِّقة بهذا الدين، فالقرآن الكريم كتاب علم، وحق، ونور، وبرهان، وبصائر، فالعلم كلَّه تحت تدبُّره.

ومن روائع كلام السيوطي – رحمه الله – قوله : "وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل هدْيٍ وغي. فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد "(٤٣).

يقول ابن القيم رحمه الله:

فتدبّر القرآن إن رمت الهدى * فالعلم تحت تدبُّر القرآن

لقد قال تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾النساء: ٨٢ - ٨٣.

حين طالعتُ هاتين الآيتين وتأمّلتهما وجدت فيهما من الكنوز والمعاني والفوائد، ما لم يخطر على بالي سابقاً، وقد خرجت منها بعشرين فائدة من المعاني المنيفة واللطائف العظيمة، ومن هذه الفوائد:

١- الحث على تدبر القرآن والدعوة إلى ذلك في قوله:(أفلا).

٢- (يتدبَّرون) نلحظ هنا أنّ التعبير جاء بفعل المضارع، ومن أغراضه الدلالة على تكرار التدبر وتجدده.

٣- أنَّ أي كلام يقوله الناس غير كلام الله، فسيجدون فيه اختلافاً كثيراً بيِّناً.

٤- أنَّ الحث على التدبر جاء بصيغة الجمع (يتدبَّرون) وليس مقتصراً على أحد دون أحد، فالتدبر ينبغي أن يكون لجميع الناس، بشتَّى تخصُّصاتهم واهتماماهم، فقد جاءت الآية بعد

---

٤٢) معالم التنزيل، البغوي : (١١٦/٧).

٤٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي: (١/ ٣٩).

الحديث عن المنافقين، فهي دعوة لغير المسلمين بتدبُّر القرآن، ومثلها قوله تعالى:{أفلم يدبروا القول}فهو دعوة للناس جميعاً بتدبُّر القرآن.

٥- أنَّ التدبُّر للقرآن يحصل بالجلوس الجماعي، لإحسان عرضه وتلاوته مع عمق تدبُّره، ومطالعة آياته والتفكُّر فيها وتدبُّرها.

٦- أنَّ في الآية معنى مُعجز للخلق جميعاً، وهو :التحدي لكل العقول البشريَّة التي تتدبُّره، بأنَّها لن تجد فيه من تناقض أو اضطراب أو اختلاف .

٧- أنَّ طبيعة الناس المسارعة لإفشاء الأسرار وإذاعتها، والواجب ردَّها للرسول في حياته وإلى أولي الأمر بعد وفاته، لأنَّهم من أهدأ الناس في التعامل مع الأحداث.

٨- أنَّ القرآن نعى على من يقرأ القرآن ولا يستنبط معانيه.

٩- أنَّ منزلة أهل العلم عظيمة إذ أنَّ الله تعالى قرنهم مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

١٠- أنّ أولى الناس بعد وفاة رسول الله للفصل في قضاياهم وشؤونهم هم أهل العلم القادرون على الاستنباط.

١١- أنَّ الجمود على النصوص والمنقولات، دون استخراج كنوزها واستنباط معانيها، لا يُعدُّ المرء به عالماً حقاً، فأهل العلم لديهم فكر استنباطي.

١٢- أنَّ أولي الأمر أصالة هم أهل العلم؛ لأنَّهم أهل القدرة على الاستنباط الدقيق من نصوص الشريعة.

١٣- أنَّ أهل التدبّر للقرآن هم أهل العلم به.

١٤- أنَّ القدرة على الاستنباط لا تتحصَّل إلا بتدبر القرآن، فآية الإستنباط أتت بعد آية التدبر.

١٥- أنَّ فضل الله تعالى يكتنف من أحسن التدبر لمعاني القرآن واستطاع القيام بالاستنباط.

١٦- أنَّ الله تعالى وجَّه الأمر بالتدبُّر لعموم الناس وخصَّ بالاستنباط أهل العلم.

١٧- أنَّ في الآية تفضيلا لأهل الاستنباط لأنهم أهل علم ومعرفة.

١٨- أنَّ من فضل الله على الناس أن جعل بينهم كتابه ، ورسول الله الذي يُرشدهم لما فيه من صواب، وأهل العلم والاستنباط الذين يُفصِّلون آياته ويشرحونها ويستنبطون منها.

١٩- أنَّ من لم يُحسن التدبر والاستنباط فإنَّه يخشى عليه اتباع الشيطان.

٢٠- أن التدبر يدل على أن القرآن معلوم المعنى.

قال الرازي:"دلت الآية على أن القرآن معلوم المعنى خلاف ما يقوله من يذهب إلى أنه لا يعلم معناه إلا النبي والإمام المعصوم ، لأنه لو كان كذلك لما تهيأ للمنافقين معرفة ذلك بالتدبر، ولما جاز أن يأمرهم الله

تعالى به وأن يجعل القرآن حجة في صحة نبوته، ولا أن يجعل عجزهم عن مثله حجة عليهم، كما لا يجوز أن يحتج على كفار الزنج بمثل ذلك"([٤٤]).

إنَّ أعظم توفيق يُوفّق إليه العبد أن يُحسن استعراض نصوص الوحي، وتَكُوْنُ لديه المكنة والأهليَّة لفقه الاستنباط ومَلَكَتِهِ، وطريقة الاستخراج الاجتهادي مما في كتاب الله تعالى من أحكام وحِكم، وهو فضل من الله تعالى على عباده يهبه من يشاء ويصرفه عمَّن يشاء.

فعن أبي جحيفة قال:" قلت لعلي بن أبي طالب: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم"([٤٥]).

وهذا القول المأثور عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يُشعرنا أنَّ هنالك الكثير من الفهم الذي لا زال في مستودعات النصوص، التي تحتاج لتثوير وتفجير ما فيها من علم وفقه، لأنَّها مُضمَّنة في نص الكتاب، فمن رزقه الله فقهاً وفهماً فهو صاحب عقل وإدراك.

وقد تميَّز بذلك الصحابي الجليل عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – الذي دعا له النبي صلَّى الله عليه وسلَّم وقال بالفقه في الدين، وعُرفأنَّه تُرجمان القرآن، وحبر الأمة، وكأنَّه ينظر إلى الوحي من ستر رقيق.

يروي ابن عباس فيقول: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من قد علمتم. فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم، قال: ما تقولون في قول الله تعالى:{إذا جاء نصر الله والفتح} فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا. فقال لي: أكذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا ، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له قال: {إذا جاء نصر الله والفتح} وذلك علامة أجلك {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} فقال عمر ما أعلم منها إلا ما تقول! ([٤٦]).

لا ريب أنَّ هذا من توفيق الله تعالى وفضله، الذي يرزقه بعض عباده، فيهبهم من أنواع الفهم، وأدوات الاستنباط، وطرائق التفكير، حيث يُحسنون ربط مداميك العلاقة بين النص والاجتهاد الاستنباطي جامعين بين فقه التدبر، وفقه المقاصد.

---

[٤٤]) التفسير الكبير، الفخر الرازي(٥ / ٣٠١).

[٤٥]) صحيح البخاري، كتاب العلم، ح : (١١١).

[٤٦]) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، ح: (٤٦٨٦).

إنَّنا إذ نلحظ ذلك الترابط العميق، والسر الوثيق بين مقصد التدبر لكتاب الله، الذي يُوصلنا إلى دوائر الاجتهاد والفقه الاستنباطي، ندرك حقيقة مدى ترابط العلوم الشرعيَّة بعضها مع بعض؛ لأنَّها خرجت من مشكاة واحدة، وهي ما تحتاج إلى مُكنة اجتهاديَّة مقتدرة على التعامل مع هذه النصوص.

لقد تحدثالشاطبي عن صفة من يملك حق الاجتهاد، فقال – رحمه الله – : "وتحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين:

١) فهم مقاصد الشريعة على كمالها.

٢) التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها"(٤٧).

إنَّ القدرة العلميَّة ليست بمجرَّد حفظ النصوص وضبطها، وهذا وإن كان ضرورياً؛ إذ لا يُبتنى السقف بدون أعمدة وأسس؛ إلاَّ أنَّه ليس كلُّ شيء في العلم؛ وإنَّما العلم الدقيق، هو ما يُمكن أن يقوم به الشخصُ في تحريك وقدح زناد الفكر لاجتهاد استنباطي منضبط بأصول الفقه وقواعد الشريعة المرعيَّة، وبهذا يستحقُّ الشخص أن يكون فقيهاً، ولقد قال محمد بن سراقة البصري: حقيقة الفقه عندي الاستنباط ، واستدلَّ بقوله تعالى: {لعلمه الذين يستنبطونه منهم}(٤٨).

وسئل محمد بن عبد الحكم وهو من أكابر أصحاب الشافعي بمصر"من الفقيه؟ قال: الذي يستنبط أصلا من كتاب الله تعالى أو من سنة رسوله لم يسبق إليه، ثم يُشعِّب من ذلك الأصل مائة شعبة"(٤٩).

إنَّ الاجتهاد الاستنباطي من كتاب الله تعالى لا يُمكن أن يتحصَّل عليه المرء إلاَّ بمزيد من التدبر والتفكُّر لكتاب الله تعالى، ولقد أنزل الله القرآن؛ لكي نتفكَّر ما في آياته العظيمات.

لذلك يقول الإمام البيهقي في قوله تعالى: ﴿ **بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)** ﴾النحل: ٤٤: " فما ورد بيانه عن صاحب الشرع ففيه كفاية عن فكرة من بعده، وما لم يرد بيانه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده؛ ليستدلوا بما ورد بيانه على ما لم يرد"(٥٠).

وكلُّ من تفكَّر فيآياته فسيناله نوع إدراك من بصائره التي تنير القلوب، وترنو إليها العيون، وفي قوله تعالى إشارة إلى ذلك، حيث يقول الحقَّ تبارك اسمه:﴿ **قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ (١٠٤)** ﴾الأنعام: ١٠٤.

إنَّ التدبر للقرآن يستلزم فهم آياته الكريمات، وتعقّلها، فالله جلَّ جلاله يقول: ﴿ **حمٓ (١) وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤)**

---

[٤٧] المواقفات، للشاطبي: (٢/ ٢٠)

[٤٨] المنثور في القواعد، البدر الزركشي : (١/ ٦٧).

[٤٩] مناقب الشافعي، الرازي، ص: ٦٤

[٥٠] ذكره الزركشي في البرهان ٢/ ٣٠٤، والسيوطي في الإتقان ٣/ ٣٥٩، ونسباه إلى المدخل للبيهقي.

﴾الزخرف: ١ - ٤، لهذا لن يحصل تدبر مستوعب لآي القرآن إلاَّ بفهم آياته ومعانيها حقَّ الفهم؛ كما يقول ابن جرير رحمه الله-: "محال أنْ يُقَال لمن لا يَفهم ما يُقَال له، ولا يَعْقِل تأويلَه: "اعتبرْ بِما لا فَهْم لك به، ولا مَعْرفة مِن القيل والبيان" إلا على معنى الأمْرِ بأنْ يَفْهَمه، ويفقهه، ثم يتدبره، ويعتبر به، فأَمَّا قَبْل ذلك فمستحيلٌ أَمْرُهُ بتدبُّره، وهو بمعناه جاهِلٌ "(٥١).

إنَّ من أعظم موانع التدبر لكتاب الله الركون إلى تقليد الآخرين، وعدم مُجاوزة رأيهم، ولو كان على خطأ، والتعصُّب لقولهم، شأنهم في ذلك كما قال ابن مسعود:" كنا نعدُّ الإمعة في الجاهلية، الذي يدعى إلى الطعام فيذهب معه بغيره وهو فيكم اليوم المحقِب دينه الرجال "(٥٢).

قال الزمخشري:"المحقِب: المردف من الحقيبة وهي كل ما يجعله الراكب خلف رحله. ومعناه المقلد الذي جعل دينه تابعا لدين غيره بلا روية ولا تحصيل برهان "(٥٣).

ولقد بيَّن الإمام ابن تيمية مدى خطورة هذا التفكير، فقال رحمه الله : "كَذَلِكَ تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ عَلَى قَوْلِ مَنْ قَلَّدَ دِينَهُ أَوْ مَذْهَبَهُ فَهُوَ يَتَعَسَّفُ بِكُلِّ طَرِيقٍ حَتَّى يَجْعَلَ الْقُرْآنَ تَبَعًا لِمَذْهَبِهِ وَتَقْوِيَةً لِقَوْلِ إمَامِهِ وَكُلٌّ مَحْجُوبُونَ بِمَا لَدَيْهِمْ عَنْ فَهْمِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْ كَلَامِهِ فِي كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرِهِ"(٥٤).

٢-عمل المرء بكتاب الله، وتطبيقه في واقع الحياة.

كلُّ من يقرأ القرآن ويتدبَّر ما فيه يلحظ أنَّ القرآن يدعوه للعمل والنشاط والحركة والتطبيق وممارسة السلوك الصائب، والحذر من السلوك الخاطئ.

وفي قوله تعالى إشارة لذلك: ﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾** ﴾النساء: ٦٦ - ٦٨

ففي هذه الآية حث واضح على ضرورة العمل بما يوعظون به وأنَّ لها نتائج يحبُّها كل من يؤمن بالله تعالى، فالعمل خير للناس، ومعين لهم على الثبات، وعليه أجر عظيم، ويهديهم الله بسببه الصراط المستقيم.

---

٥١) تفسير الطبري ، محمد بن جرير الطبري،: (١ / ٨٢).

٥٢) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر: رقم : (١١٣٣)، باب فساد التقليد ونفيه.

٥٣) الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، (١ / ٥٦ – ٥٧).

٥٤) مجموع فتاوى ابن تيمية : (١٦/ ٥١).

إنَّ كثيراً من الخلق يتعاملون مع القرآن (للتبرُّك) لا (للتحرُّك)، ويستخدمونه لما يُحبُّونه ويرغبون فيه، لا أن يخدموا أنفسهم بما أمرهم به كتاب الله تعالى من العمل والسعي الدؤوب في تحريك معاني القرآن في واقع الحياة.

ولقد تحدَّث جماعة من أهل العلم عن حقيقة التدبر، منهم الحسن البصري – رحمه الله – حيث قال:"والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء"(٥٥)

وهذا نص صريح عظيم؛ يتبيَّن منه أنَّ سلفنا الصالح ما فهموا أنَّ التدبر للقرآن مجرد إقامة حروفه، وتضييع حدوده، لأنَّ حقَّ التلاوة للقرآن العمل بالقرآن﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ ﴾البقرة: ١٢١.

يقول عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – بقوله: (والذي نفسي بيده! إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله"(٥٦).

إنَّ القرآن الكريم وإن كان مُيسَّراً للذكر؛ إلاّ أنَّه (قول ثقيل)، هو كتاب يحتاج لأولي الأحمال المكلَّفين بحمله والقيام به، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ ﴾المزمل: ٥، وقد قام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بحمل أثقال القرآن وتكاليفه، بل كان خُلُقُه القرآن، وكذا الصحابة رضي الله عنهم، فقد تحمَّلواالقرآن، حتَّى أنَّهم وُصفوا بأنَّهم مصاحف يمشون على ظهر المدينة؛لقيامهم بحقِّ القرآن، تدبراً وتعقُّلاً وتفكّراً وتبصُّراً، وقاموا بذلك عملاً وتطبيقاً وسلوكاً وممارسة.

ولقد جاءت الروايات والأخبار عن عدد من الصحابة - رضي الله عنهم – منهم عثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود وأبي بن كعب - رضي الله عنهم أجمعين – أنهم كانوا يأخذون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى، حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل قالوا: فتعلمنا العلم والعمل(٥٧).

---

٥٥) الزهد والرقائق لابن المبارك ت أحمد فريد ج٦/ ٦١٠ رقم ٧٤٢ .

٥٦) تفسير ابن كثير : (١ / ٤٠٣).

٥٧) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: (١١٧/٦)، والإمام أحمد في مسنده: (٤٦٦/٣٨) وصحَّحه محققو المسند، وابن جرير الطبري في تفسيره: (٧٤/١)، قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: (٤٠٨/١٧): (وهذا أمر مشهور رواه الناس عن عامة أهل الحديث والتفسير، وله إسناد معروف).

إنه أمر عام في أفاضل الصحابة كما يحكيه عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما –: "كان الفاضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة أو نحوها، ورزقوا العمل بالقرآن، وإن آخر هذه الأمة يرزقون القرآن منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العمل به"(٥٨).

لقد قال تعالى: ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ (١) رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ (٢) ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ (٣) ﴾الحجر: ١ - ٣.

ولعلَّ ما يُمكن استنباطه من هذه الآية، العلم بأنَّ العمل بالقرآن ليس مُجرَّد أمنيات وتمنِّيات، بل هو القيام بالعمل بكتاب الله ليتحرك به الناس في حياتهم، ويعلموا أنَّه حاكم بينهم ومرجع لهم في واقعهم الدنيوي، فإنَّ أكبر مُعضلة في واقعنا أنَّ بعضهميظن أن كتاب الله يتحدَّث عن أزمنة سابقة — حياة الرسول والصحابة –، أو أزمنة قادمة — يوم القيامة والوعد والوعيد والمعاد – ، ولا يعلمون أنَّ هذا الكتاب أتى لإصلاح واقع البشريَّة، وأنَّه منهاج حياة ونظام مُتكامل، يحتاج إلى الأعين المبصرة والقلوب البصيرة؛ ليدركوا أنَّ كتاب الله عزَّ وجل يناقش كُلَّ مشكلاتهم،وصدق الله ومن أصدق من الله حديثاً إذ يقول: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (٨٩) ﴾النحل: ٨٩.

يقول الإمام ابن كثير:" فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ، ومعاشهم ومعادهم"(٥٩).

ولقد قال كثير مِمَّن لم يدخلوا الإسلام الكثير عن القرآن، حتَّى لو تصفَّحنا كتاب د. عماد الدين خليل: (قالوا عن الإسلام)(٦٠)ونقولاته الرائعة — جزاه الله خيراً — عن عدد من مُفكري وخبراء وعلماء غير المسلمين عن كتاب الله، وشهاداتهم أنَّه كتاب حياة وعلم، مع أنَّهم ما أدركوا معنى وطعم آيات هذا الكتاب، وقالوا كلاماً تظنُّ أنَّه قد خرج من مسلم لانبهارهم بالقرآن الكريم، فوجب على المسلمين العمل بكتاب الله وتطبيق أوامره، واجتناب نواهيه، فهو وإن كان نبأ ما قبلنا وخبر ما بعدنا فهو حكم وفصل القضاء فيما بيننا،ومن تفهَّم القرآن على حقيقته واتبَّعه حقَّ اتِّباعه، فسيرى بأمِّ عينيه كيف يُوجّه كتاب الله دفَّة الحياة إلى كل خير، وإن تعجب فاعجب من بعض العقول فإنَّ:" أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته– أي القرآن – وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل، ولم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن"كما يقول الإمام ابن قيم الجوزية(٦١).

٣–زيادة الإيمان، وتثبيت اليقين بالقلب.

---

٥٨) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : (١/ ٥١).

٥٩) تفسير ابن كثير : (٤ / ٥٩٤ — ٥٩٥)

٦٠) قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، مكتبة صيد الفوائد، قسم : ردود وتعقيبات:
http://www.saaid.net/book/open.php?cat=88&book=1636

٦١) مدارج السالكين، ابن القيم: (١/ ٣٤٣)

يقول ابن قيم الجوزية " نزل القرآن ليتدبر ويعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً ، فليس بشيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه وجمع الفكر على معاني آياته ؛ فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها وعلى طرقاتها وأسبابها وغاياتها وثمراتها ومآل أهلهما وتتل في يده كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشيد بنيانه وتوطد أركانه وتريه صورة الدنيا والآخرة "(٦٢).

يشهد لذلك قوله تعالى في الآية القرآنية الكريمة: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ ﴾التوبة: ١٢٤فإنَّ للقرآن أثراً كبيراً في زيادة إيمان المسلم مستبشراً بما فيه من آيات وعظات، وحُكم وحِكم ودلالات.

كما أنّ زيادة الإيمان جالبة لتثبيت اليقين في قلوب المؤمنين، ودرء الشبهات فكتاب الله تعالى فيه عوامل التثبيت كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ ﴾الفرقان: ٣٢.

وفي القرآن كذلك قوّة ذاتية تكسر جميع الشبهات التي يعترضها الكفّار على أهل الإيمان، ويكفينا في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾الفرقان: ٣٣ فالقرآن قاطع لجميع شبهات الآخرين، ورادٌّ على شكوكهم وشبهاتهم وانحرافاتهم، ولله تعالى حكمة بالغة حينما وصف كتابه في السورة العظيمة الجامعة، التي سمَّاها العلماء : (فسطاط القرآن) أو (المدينة الجامعة) ألا وهي سورة البقرة حيث قال: ﴿ الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ﴾البقرة: ١ - ٢ فالقرآن كتاب لا شك فيه ولا ريب، فهو كتاب يقين، وكل الكتب التي تعارضه وتجادل فيه فهي كتب شكوك وشبهات!!

إنَّ كتاب الله تعالى يدل أصحابه على الهدى فهو كما قال تعالى: {هدى للمتقين} والكتب الأخرى المعارضة له، لا تهدي أصحابها للهدى بل للهوى! والهدى هو الذي يُثبِّتُ اليقين في القلوب، وبه يشفي الله الصدور مما يعتريها من أمراض، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ ﴾يونس: ٥٧، فكتاب الله تعالى فيه من تثبيت دعائم اليقين ما يُريح الله به صدور المؤمنين، لأنَّ كتاب الله يُصدّق بعضه بعضه ويوافق بعضه بعضاً، فهو

---

٦٢) نفس المرجع : (١/ ٤٥٠).

مرجعيّتهم الكبرى في مدافعة شر الكفرة والمنحرفين عن طريقة هذا الدين، لهذا أمر تعالى رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم بمجاهدة الكافرين بكتاب الله فقال: ﴿ **فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا** (٥٢) ﴾الفرقان: ٥٢، وهو الحقّ الذي يُزهق الله تعالى به الباطل، قال تعالى : ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ** (١٨) ﴾الأنبياء: ١٨.

إن لنزول القرآن على القلب دليلا أكيدا على أنَّ القلب إن صلح صلحت من خلاله الأفكار، وثبت اليقين بالقلب،ولذلك فقد كان لنزول القرآن تعلُّق بالقلب، قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ** (١٩٢) **نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ** (١٩٣) **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ** (١٩٤) ﴾الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤، يقول الإمام البخاري:"لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن بالقرآن ولا يحمله بحقه إلا الموقن"(٦٣)، فمن أشغل قلبه بذكر الله فقد اهتدى، ومن صدَّ بقلبه ونأى عن كتاب الله فقد خاب وخسر، وكانت على قلبه الأقفال، مصداقاً لما قاله يقولُ ابنُ عباسٍ –رضي الله عنهما–: "ضَمِنَ اللهُ لمن قَرَأَ القرآنَ لا يَضِلُّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قَرَأَ: ﴿ **فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ** (١٢٣) ﴾طه: ١٢٣"(٦٤)، لهذا حثَّ الصحابي الجليل ابن مسعود على إشغال القلوب بالقرآن؛ فقال:"إن هذه القلوب أوعية فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره"(٦٥)

٤- تذكُّر أولي الألباب ترغيباً وترهيباً، وعداً ووعيداً.

يقول الله تعالى :{كتاب أنزلناه إليك مُبارك ليدَّبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب}فهذا الكتاب لا يأخذه بحقِّه تدبراً وعملاً، إلاَّ من تذكَّر ما فيه، فمن يخاف الوعيد، فليس له طريقة تذكيريَّه لقلبه وروحه إلاَّ بالقرآن الكريم، فالله يقول: ﴿ **فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** (٤٥) ﴾ق: ٤٥فكتاب الله تعالى ذكر وتذكير، وفيه وعد ووعيد علَّ الناس تتقي ربَّها وتتذكَّر مواعظه، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا** (١١٣) ﴾طه: ١١٣

لقد أنزل الله تعالى القرآن مُيسّراً؛ كي يُحسن الناس مطالعته، ويتذكَّروا ما فيه من عظات وعبر، ويستبشر به أهل التقوى، ويُنذَّر به أهل الهوى.

قال تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** (٥٨) ﴾الدخان: ٥٨.

وقال تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا** (٩٧) ﴾مريم: ٩٧.

---

٦٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى : {قل فأتوا بالتوراة فاتلوها }.

٦٤) أخرجه –كما في الدر المنثور :(٥/ ٦٠٧): الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب من طرق عن ابن عباس.

٦٥) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر: (٢٨٣/١) ، رقم : (٣٥٨) .

وقالتعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾القمر: ١٧ أي يسَّره الله للتذكر والانتفاع بما فيه، ونلحظ أنَّ هذه الآية العظيمة تكرَّرت في سورة القمر أربع مرَّات؛ وذلك لأهميَّة الوقوف مع آيات الذكر الحكيم، والتبصُّر بما فيه، ولهذا قال: {فهل من مدكر} وقد وصف الله الكتاب الكريم بأنَّه ذكر مُبارك فقال: {وهذا ذكر مُبارك أنزلناه} فكتاب الله مرتبط تذكيره للعبد بنيل البركة من الله تعالى، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾الحجر: ٩فسمّى الله تعالى كتابه بكامله ذكرا، وجعله ذكرا لكل الناس، حيث قال : ﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾القلم: ٥١ - ٥٢

إنَّ مهمَّة الداعية أن يتبصَّر في كتاب الله تعالى، ويتدبَّر ما فيه من معان، ثمَّ يُذكِّر بها الخلق جميعاً، حتَّى لا تموت الأنفس وتحبس بأعمالها السيئة عن الخير، أو أن تبقى رهينة بالعذاب، ولذلك يقول الله تعالى عن القرآن: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾الأنعام: ٧٠.

ولقد وصف الله تعالى من أعرض عن سماع ذكره وصفاً مسيئاً لهم جرَّاء عملهم السيء؛ فَهُمْ كالحمير المستنفرة، فقد قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ ﴾المدثر: ٤٨ - ٥١وكلُّ من كان معرضاً عن ذكر ربِّه فهو ظالم لنفسه؛ لأنَّه أعرض عمَّا ينفعه في أمر دينه، بل كانت الجنُّ أفضل منه حين قالت: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾الجن: ١ - ٢، فيا خسارة ويا هوان المعرض عن ذكر الله؛ فإنَّه جلَّ جلاله يقول: ﴿ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ ﴾الجن: ١٧.

لقد ظلموا أنفسهم، حين أعرضوا عن ذكر الله وسماعه، وكان على قلوبهم أكِنَّة فلا يفقهون القرآن، وفي آذانهم ثقل فلا يحسنون سماع كتاب الله تعالى، للانتفاع به والاهتداء بهداه، بل هم ساهون لاهون، فالله تعالى يُخبر عنهم فيقول: ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾الأنبياء: ٢ - ٣، ولذلك جعلهم الله ظلمة فقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾الكهف: ٥٧.

لهذا فلا ينتفع بمواعظ القرآن وتذكيره، إلاَّ أهل الصلاح والتقوى، وقد ذكر الله تعالى ذلك في كتابه فقال: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ

﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾الحاقة: ٤٤ - ٥٢.

٥-التفكر بكتاب الله تعالى والنظر في إعجازه وآياته.

لا يكون للمؤمن حظٌّ من مقاصد التدبر للقرآن؛ إلاَّ عندما يكون له حظ ونصيب من النظر في آيات القرآن ومُعجزاته المذهلة التي لا تتبدَّى للمرء من أول وهلة، بل لعدد من المرَّات اطِّلاعاً ونظراً فيها.

إنَّ قريش حينما اتَّهمت رسول الله بأنَه ساحر أو كاهن أو شاعر أو مجنون، أنزل الله تعالى قوله: ﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ ﴾سبأ: ٤٦ فمن يُوحى إليه بهذا الوحي، فليتفكّر هل يمكن أن يكون مجنوناً؟ إنَّ رسول الله محمد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلّم لا يتلقَّى القرآن من أي أحد، بل هو يتلقَّاه من الله الواحد الأحد – تبارك اسمه – حيث يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾النمل: ٦، فمن أنزل عليه هذا الكتاب المتَّصفُ بصفات الكمال والجلال والجمال؛ فإلى أين يذهب وهذا الروض اليانع فيه، فلا محيد ولا مفر عنه إلا إليه: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾العنكبوت: ٥١، بل من طلب آية مُعجزة فلن يجد أعظم من كتاب الله تعالى، ولقد طلب الكفَّار من رسول الله محمد صلَّى الله عليه وسلَّم آية تكون لهم كما كانت ناقة صالح، أو عصا موسى، واقترحوا ذلك بحرف التحضيض الدال على شدة الحض في طلب ذلك: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ ﴾طه: ١٣٣ وبيَّن تعالى لهم أنَّ القرآن الكريم فيه من البيِّنات والهدى ما يكفيهم ويُعيدهم إلى المربَّع الأول الذي يريدون التفلت منه؛ فأعادهم الله تعالى إلى ذكره .

بل وصلت الغاية في تأثير القرآن وإعجاز آياته أن يقول الله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} أي: لكان هذا القرآن ! وذلك "لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به!"(٦٦).

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم:" ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة"(٦٧) وبذلك تثبت معجزة النبي محمد صلَّى الله عليه وسلّم؛ فكلُّ الأنبياء الذين كانوا قبله،

---

٦٦) تفسير ابن كثير : (٤/ ٤٦٠)

٦٧) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل: (٤٦٩٦).

انقرضت معجزتهم والآية التي كانت معهم بوفاتهم، ويبقى كتاب الله تعالى حجَّة على الآباد، إلى يوم المعاد، فلا محيد عنه و لا مناص، فهو الكتاب الباقي والروضة المزهرة.

عد إلى الروضة إنَّ الغيث يهمي * في روابيها ويكسوها جمالا

إنَّ القرآن نزل على الرسول محمد صلَّى الله عليه وسلَّم في أمَّة عربيَّة تفتخر بسبك الكلام، وحبك العبارات، وتدبيج القصائد، والتَّباري بالشعر، والتظاهر بالفصاحة، والافتخار بالبيان والمعاني والبديع في بلاغة عربيَّة باهرة، فهزَّ القرآن فؤادهم هزَّاً، وصدع قلوبهم صدعاً، حتَّى أنَّه أثَّر على نفسيتهم فبينَّ القرآن أنَّهم قد تواصوا فيما بينهم على الإفساد وفضح مخطَّطاتهم فقال: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦** ﴾فصلت: ٢٦وعلى الرُّغم من تواصيهمفيما بينهم ألاَّ يستمعوا للقرآن وأن يلغوا فيه، إلاَّ أنَّهم رضخوا لكتاب الله الذي يتنزل على رسول الله في الواقع، ما لكلامه من دافع، ويجتمع أولئك القوم حوله ليستمعوا ما فيه منآيات ومعاني تأخذ بلب كل ذي لب، حتَّى يعلم الناس بعد شيء من التدبُّر والتفكّر : هل هذا من كلام رب العالمين أم من كلام البشر الأقلين؟

لكن حقاً ما أسوأ التفكير حين يتنافى مع الحق فينحرف في التعبير بعد سوء تقدير!

أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً! قال: لمَ؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فو الله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر (يؤثر يأثره عن غيره)، فنزلت: ذرني ومن خلقت وحيداً([٦٨]).

لقد انبهر الوليد بن المغيرة حين استمع للقرآن، وقال كلاماً يدلُّ على أنّه أُخذ بحُسن بيان هذا الكتاب العظيم، لكنَّ المصيبة حين سمع الملأ من عتاولة قريش بخبره، أتوه يهرعون إليه؛ ليوافق هواهم، فحرفوه عن تفكيره السليم إلى تفكير باطل!

---

٦٨) أخرجه الحاكم في المستدرك :(٣٩٢٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي .

والرواية على شهرتها إلاَّ أنَّ الصواب كونها ضعيفة، قال الشوكاني أنَّها مرسلة،كما في فتح القدير: (٤٦٧/٥) وضعَّفها مقبل الوادي في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص:٢٦٢

فقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ (٢٤) إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ (٢٥) ﴾المدثر: ١٨ - ٢٥ فبعد أن بدأت أشعَّة الإيمان تدخل قلب الوليد بن المغيرة؛ إذا به يتأثَّر بظلام كلام أصدقاء السوء، فإذا به يُفكِّر ثمَّ يقدِّر ثمَّ يُعبِّر قالباً الحقائق ، فيقول عن القرآن: {إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ}.

إنَّ من أعظم نواحي الإعجاز في كتاب الله تعالى، أنَّه يذكِّر الناس بآيات مختلفة، لاستدعاء تفكيرهم ونظرهم في هذا الكون والحياة؛علَّ القلوب تصحو من وهدتها فتعلو، والأعين تبصر بعد رقدتها فلا تغفو، فنلحظُ في سورة الرحمن تكرار الآية القرآنية:{فَبِأَيِّ آَلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} إحدى وثلاثين مرة؛ لتحثَّ القوم على التوقف مع آيات الله وذكر تلك النعم الواردة، والآلاء البهيجة، لعلَّ الأنفس تؤمن بالله وتمتثل ما أمر الله تعالى به.

قام رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةً من الليالي فقال : يا عائشةُ ذَرِيني أتعبَّدُ لربي قالت : قلتُ : واللهِ إني لَأُحبُّ قُربَك وأحبُّ أن يُسرَّك قالت : فقام فتطهَّر ثم قام يصلي فلم يزلْ يبكي حتى بلَّ حِجرَه ثم بكى فلم يزلْ يبكي حتى بلَّ الأرضَ وجاء بلالٌ يُؤذِنه بالصلاةِ فلما رآه يبكي قال يا رسولَ اللهِ تبكي وقد غفر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخَّر قال أفلا أكونُ عبدًا شكورًا ؟ لقد نزلتْ عليَّ الليلةَ آياتٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكَّرْ فيها([69]): ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) ﴾آل عمران: ١٩٠ - ١٩١

٦– طمأنينة النفس وسعادة القلب وروح الروح.

إنَّ كتاب الله تعالى مصدر سعادة لأرواح المؤمنين؛ فقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ (٢) ﴾طه: ٢ والكتب التي تناقضه لن يعيش أصحابها إلاَّ في شقاء وضيق في صدورهم، كما بيَّن تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾طه: ١٢٤ - ١٢٦.

إنَّ كتاب الله تعالى هداية للأفئدة، وطمأنينة للنفوس، وراحة للقلوب، وهو الذي يزيل الأحزان، ويذهب الهموم والغموم، ويرزق الله به الناس من الخيرات ما لا يتوقَّعونه، فهو القائل: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ

---

[69]) أخرجه ابن حبَّان في صحيحه، رقم : (٦٢٠)، وقال الألباني: إسناده جيد، كما سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني:(١/١٤٧) رقم : (٦٨)، وقال د.فاروق حمادة : حديث حسن، في كتابه: الصحيح في فضائل القرآن وسوره وآياته، ص:٢٠٢، دار القلم/ دمشق، ط:١، ١٤٢٩ – ٢٠٠٨ م.

وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦ ﴾المائدة: ٦٦.

وحين يستقم الناس على الطريقة التي يدعو إليها القرآن، سيلحظوا بركات الرحمان تتنزَّل عليهم، ومن يُعرض عن تطبيقها فإنَّه سينال العذاب والثبور، وعظائم الأمور، فالله تعالى يقول: ﴿ **وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧** ﴾الجن: ١٦ - ١٧.

وحين يستشعر المؤمن معنى طمأنينة القلب، وراحته وأفراح روحه وزوال قلقه، فإنَّ الأنفس المؤمنة تعلم أنَّه لا يحقُّ لها أن تطمئن لشيء إلاَّ لذكر الله، فهو القائل:﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨** ﴾الرعد: ٢٨....فتطمئن القلوب، وتبتهج الأنفس، ويزوال الداء عن الفؤاد الصادي، ففي ذكر الله الدواء الشافي، والهدى الوافي، كما قال تعالى عن القرآن:﴿ **قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ٤٤** ﴾فصلت: ٤٤.

وإنَّ مِمَّا يؤسف له أن نجد كثيراً من الناس قلبوا القرآن من كتاب سعادة إلى مُهيِّج للأحزان؛ فلا يتعرَّفون على كتاب الله تعالى إلاَّ وقت العزاء أو المناسبات المؤلمة، ولا يحصل تدبر ولا تأمل.

يقول الإمام ابن مفلح – رحمه الله – : "من المعلوم أنه يشرع في أوقات الشدائد والمصائب قراءة شيء يسكنها بذكر ما جرى على الأئمة . ليتأسى بهم صاحب المصيبة وما وعد الله الصابرين من الأجر والثواب الجزيل . فأما قراءة شيء يهيج الحزن ويحمل على الجزع فينبغي أن يكره .

وفي كلام ابن عقيل ما يقتضي ذلك فإنه رحمه الله لما توفي ابنه عقيل سنة عشر وخمسمائة وعمره سبع وعشرون سنة، و كان تفقه وناظر في الأصول والفروع، وظهر منه أشياء تدل على دينه وخيره حزن عليه وصبر صبرا جميلا، فلما دفن جعل يتشكر للناس فقرأ قارئ :{يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين}فبكى ابن عقيل وبكى الناس وضج الموضع بالبكاء، فقال ابن عقيل للقارئ يا هذا : إن كان يهيج الحزن فهو نياحة، والقرآن لم ينزل للنوح بل لتسكين الأحزان"([٧٠]).

٧–الوقوف مع مقاصد القرآن وأهدافه وغاياته.

إنَّ هذه القضيَّة من أعظم القضايا التي توصلنا إلى الضفَّة الأخرى لبحثنا، فإنَّ من أعظم مقاصد التدبر أن يقف المرء مع نفسه متفكِّراً ومتبصَّراً ومتدبِّراً ومتعقلاً ومتأملاً في مقاصد القرآن الكريم، وما اشتملت عليه سوره الكريمة، وآيات العظيمة، من مبانٍ جسام، أراد الله تعالى منها أن تُتلى وتبقى متلوَّة حتَّى يأذن الله تعالى برفع القرآن!

---

[٧٠]) الآداب الشرعية، ابن مفلح: (٢ / ٢٩٤).

إنَّ القرآن الكريم كتاب بصائر، فأين هي تلك الأبصار التي تأخذ وتعطي مما في كتاب الله تعالى، كما قالعز وجل: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾الأنعام: ١٠٤وقال سبحانه: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ٢﴾الحشر: ٢، وإنَّه لن يؤتي العبد معرفة المقاصد؛ إلاَّ بممارسة طرق التدبر القرآني ، التي تهديه سواء السبيل.

لئن كان القرآن الكريم قد نزل على أمَّة الإسلام؛ ليكون خالداً للبشريّة جمعاء، فإنَّ المتطلَّب من متدبِّري كتاب الله استخراج ما فيه حِكمٍ وأحكام، حيث لا يمكن التوصُّل إلى الكشف عن مقاصدها الشرعية، إلاَّ بطريقة الفحص الحقيقي في تلك النصوص القرآنية.

لابدَّ من حسن تدبُّر في آيات الله؛ لاستنطاق الألسنة وإعمال الأفئدة في التركيز على (القراءة النوعيَّة) ليقوم القارئ المسلم بما يسميَّه الإمام ابن تيمية "تفجير النصوص"([٧١]) لاستخراج ما فيها من معانٍ وعبر، وأسرار وآثار، ومقاصد ذات فوائد، وهذا لا يمكن أبداً أن يحصل إلاَّ بمنهجيَّة حسن التدبر للقرآن.

لقد راق ليتفسير بعض أهل العلم، وأكاديميينبربط معنى تدبر القرآن بالجانب المقاصدي والتفكير فيه.

قال ابن عاشور : " معنى {يتدبَّرون القرآن} يتأمّلون دلالته، وذلك يحتمل معنيين:

أحدهما أن يتأمّلوا دلالة تفاصيل آياته على مقاصده التي أرشد إليها المسلمين، أي تدبّر تفاصيله.

وثانيهما : أن يتأمّلوا دلالة جملة القرآن ببلاغته على أنّه من عند الله ، وأنّ الذي جاء به صادق"([٧٢]).

وقال د. أحمد آل سبالك عن المعنى الاصطلاحي لتدبر القرآن أنَّه :"التفكر في غايات القرآن ومقاصده التي يرمي إليها "([٧٣]).

وقالت د. رقية العلواني:"التدبر إعمالُ الذهن والفكر للتوصلِ إلى مقاصدِ الآياتِ وأهدافها، وما ترمي إليه"([٧٤]).

---

[٧١]) حين كان يتكلَّم الإمام ابن تيمية عن الصحابي الجليل ابن عباس ، حيث قال عنه : "وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط وتفجير النصوص وشق الأنهار منها، واستخراج كنوزها" مجموع الفتاوى (٤/٩٤،٩٣).

[٧٢]) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور : (٥/ ١٣٧) ، دار سحنون.

[٧٣]) فتح من الرحمن الرحيم في بيان كيفية تدبر كلام المنان، أحمد سبالك : (١/ ٧٢).

[٧٤]) تدبُّر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، د. رقيَّة طه العلواني ، ط: (٥) ، ٢٠٠٨م، ص:٦.

المبحث الثاني:

طرائق التدبر للكشف عن مقاصد القرآن

إنَّ الاجتهاد العقلي المبني على أصول الفقه الإسلامي، وقواعد الشريعة، يُمكنه الربط الوثيق والدقيق بين التدبر والمقاصد، حسب القدرة العقلية والطاقة الإدراكي والنشاط الذهني المتولِّد من زكاء القلب وصلاح العقل، وتوليد الأفكار واستدرارها، بعد إنعام نظر وإطراق فِكْرٍ، وإعادة الطرف مرَّة بعد أخرى، سنشهد دلالات رائعة، في قضيَّة الربط والوصل بين تدبر القرآن ومقاصد الشريعة والتأمُّل العلائقي في هاتين القضيتين.

وميزته أن اجتمع فيه جانب (السمع) = القرآن، بجانب (العقل) = التدبُّر والمقاصد؛ قال الغزالي: "وأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع، واصطحب فيه الرأي والشرع"(٧٥).

إنَّ الإسهام في هذا الموضوع ضروري لأنَّ فيه بعداً اجتهادياً تأملياً في ساحة الطرق والعرض في مكتبة التفسير والمقاصد، تجعل المرء يؤنِّب نفسه إن لم يستغلَّ وقته لمزيد من التأمل في كتاب الله فيه من دلالات في الحث على التأمُّل في الكتاب المنظور، والكتاب المأثور، داخل كتاب الله عزَّ وجل المسطور.

المطلب الأول:

من يبدأ أولاً :(التدبر) أم (المقاصد):

إنّه من خلال البحث التأمُّلي في هاته القضيَّة، فإنِّي رأيت أنَّ الأول في كلتا العمليتين الاجتهاديتين لأنَّهما قائمتان على معنى لطيف يمكن أن نعتبره (استنباطا) سواء أكان ذلك الاستنباط في تدبر آيات الذكر الحكيم، أو إبراز مقاصد القرآن والسور والآيات.

والذي يظهر – والله أعلم – أنَّ عمليَّة التدبر للقرآن تسبق (المقاصد)؛ لأنَّه لا يُمكن للقاصد إبراز المقاصد؛ إلاَّ حين ينعم النظر متدبراً ومتأمِّلاً في كتاب الله تعالى حينها سيطَّلِع على مُغيَّبات المقاصد؛ لتكون في حكم البراهين الساطعات.

وما استطاع أحدٌ أن يستخرج المقاصد من قلب القرآن إلاَّ من خلال عملية النظر والتأمُّل والتبصر والتفكُّر في الآيات القرآنية حتَّى يصل إلى غايته ومرامه في بعض المقاصد.

لكن هنالك تدبر يكون في ضمن أطر مقاصديَّة، بأن نكتشف أنَّ من مقاصد القرآن الكبرى (إصلاح العقيدة)، فيتأتَّى للباحث في كتاب الله أن يستخرج منه كُلّ ما يمتُّ لهذا المقصد الكبير بِصِلَةٍ، فيجمع شتَّى الآيات والنصوص القرآنية المتعلقة بذلك، ثمَّ يُقسُّمها إلى تبويبات مختلفة كمقاصد جزئيَّة صغرى

---

٧٥) المستصفى، الغزالي، ص: ٤.

ضمن المقصد الأكبر: (إصلاح العقيدة)، ويتأتَّى مع ذلك تقسيم المقاصد إلى البحث في هذا المقصد عمَّا تتناوله سور القرآن، أو بعض الآيات القرآنيَّة.

ففي هذه الحالة يمكن القول أنَّ المقصد حينما حدِّد بالتدبُّر القرآني الأول، يتم إعادة التدبر في كتاب الله تعالى لما يخدم هذا المقصد من آيات قرآنية تشير إليه صراحة أو ضمنا.

ولنأخذ مثالاً آخر على ذلك فإنَّ: (حفظ النفس – حفظ العقل – حفظ الدين – حفظ النسل – حفظ المال)نُدرك يقيناً أنَّ أهل العلم لم يستخرجوا هذه الضرورات الخمس من طريق التفكير الخارج عن القرآن الكريم، بل ما خرجت هذه المقاصد إلاّ بعد جولان البصر والتفكير العقلي في نصوص الآيات الكريمة؛ حتَّى قاموا باستخراج هذه المقاصد من النصوص، فالنصوص سابقة للمقاصد، لا أن تكون المقاصد سابقة للنصوص، وبهذا حصل لنا التقاط لطيف لمعنى مدى التأثير التدبُّري في القرآن الكريم للوصول إلى المقاصد الشرعية المستقاة من النصوص القرآنية الكريمة، فلم نتصل بالمقاصد إلاَّ بعد اتِّصالنا بالقرآن الكريم وتدبّره حتَّى شقّ لنا ينابيع الأفكار المستخرجة من هاتيك النصوص عبر (مقاصد الشريعة).

إنَّ التدبر هو العملية الأولى لاستخراج المقاصد، وهذا يظهر أنّ المقاصد -وإن كانت مبثوثة في كتاب الله تعالى- لكنَّها احتاجت لمن يُحسن التعامل مع كتاب الله، ويستطرف العيش في أجواء ملكوت الذكر الربَّأني مستخرجاً لنا هذه الأسرار لتكون في حكم المشاهدة والأنظار.

نعم السمير كتاب الله إن له * حلاوة هي أحلى من جنى الضَّرب
به فنون المعاني قد جمعن فما * تفترّ من عجب إلاَّ إلى عجب
أمر ونهي وأمثال وموعظة *وحكمة أودعت في أفصح الكتب
لطائف يجتليها كلُّ ذي بصر * وروضة يجتنيها كلُّ ذي أدب

ومن يريد التعمُّق والنظر في كتاب الله والوصول إلى الآيات المبينة لمقاصده فليس له إلاَّ العيش في أجواء القرآن والاستظلال بظلاله الوارف، لأنَّ القرآن الكريم "كلية الشريعة وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير واستدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة، وإذا كان كذلك؛ لزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها ، أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مر الأيام والليالي نظرا وعملا""(٧٦)

---

٧٦) الموافقات ، للشاطبي، جـ ٣. ص ٣٤٦ .

المطلب الثاني:

طريقة إثبات مقصد القرآن من خلال التدبر.

إنَّ التفقه في فهم مقاصد الشريعة وأسرارها، بات علماً وحده، ففيه كُتبت عشرات بل مئات الكتب والدراسات والأبحاث، وقد جلّاها العلماء بطرق شتَّى؛ كي نعرف الطرق المؤدية للكشف عن مقاصد الشريعة، والمناقشة للمخالفين المتهاونين المستهترين في ضمِّ ما يحلو لهم ذكره إلى مقاصد الشريعة، أو ذكر مقاصد ليست كذلك بسبب سوء فهمهم، أو خلل تفكيرهم، ولذلك نصَّ أهل العلم المقاصديون على ضرورة فهم المقاصد، وبيَّن ذلك الإمام الشاطبي بقوله :"من لم يتفقه في مقاصد الشريعة فهمها على غير وجهها"(٧٧)، ومن يتطلَّب فقه المقاصد ومعرفتها، فعليه ألاَّ يستغني بها عن النصوص ويجعلها بدلا عنها، فأولئك القوم لصوص مقاصديون، ولا يُمكن أن تُبنى المقاصد إلاَّ على نصوص الشريعة وأدلَّتها، ومن روائع كلام الإمام الشاطبي قولته: "فلا يسرح العقل في مجال النظر إلا بقدر ما يسرحه النقل"(٧٨)، بل لا يُمكن فهم مقاصد النصوص القرآنية إلاَّ من خلال معرفة تفسيرها بشكل تام؛ ليستطيع المرء التعرُّف على مقاصد القرآن.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:"وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لايمكن"(٧٩)، ونبَّه العلاَّمة السيوطي على ذلك فقال:"لا يجوز التهاون في حفظ التفسير الظاهر بل لابد منه أولاً. إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ومن ادّعي فهم أسرار القرآن ولم يُحكم التفسير الظاهر كمن ادّعي البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب"(٨٠).

ولقد كتب العلماء في كتب المقاصد مباحث مختلفة حول الطريقة المناسبة للكشف عن مقاصد الشريعة، وبيان مسالكه، وبما أنَّ مبحثنا مقتصر على الكشف عن تدبر مقاصد القرآن؛ فإنَّنا يُمكن أن نذكر بعض الطرائق المناسبة للكشف عن المعاني والمقاصد التي أتى بها القرآن، بشيء من الاختصار!

لعلَّ من أبرزها:

١- النظر في ترتيب نزوله فلكلٍّ تنزيل سببه ولكل سبب حكمته:

قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ الإسراء: ١٠٦.

---

٧٧) الاعتصام ، الشاطبي، (٢/ ٦٨٣)

٧٨) الموافقات ، الشاطبي : (١/ ١٢٥).

٧٩) مجموع فتاوى ابن تيمية : (١٣ / ٣٣١ – ٣٣٢).

٨٠) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي : (٢/ ٥٢٣).

يقول الطاهر بن عاشور : "وقد علل بقوله لتقرأه على الناس على مكث ، فهما علتان : أن يقرأ على الناس، وتلك علة لجعله قرآنا، وأن يقرأ على مكث، أي مهل وبطء، وهي علة لتفريقه، والحكمة في ذلك أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين"(٨١).

فالله تعالى قد فرَّق تنزيل هذا القرآن لأسباب:

١) تثبيت فؤاده صلَّى الله عليه وسلَّم.
٢) حسن عرضه وقراءته على قومه فيقرأه عليهم على مُكث وتأنٍ.
٣) التدرج في تبيين مراد الله في العقائد والتشريعات والأخلاق.

وقد أدركت عائشة تلك الحكمة التربوية من نزول القرآن مُفرّقاً، فقالت : " إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبدا ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب ﴿ **بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾** ﴾القمر: ٤٦، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده "(٨٢).

إنَّ تنجيم القرآن، وتفريق تنزيله، لا ينبع إلا من حكمة قدَّرها الله؛ واختار توقيت نزولها في ذلك الوقت، ليكون في النهاية تشريعاً لأمَة الإسلام في عصره صلى الله عليه وسلَّم وما بعد وفاته حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها.

حين نتفقَّد ترتيب النزول وسببه نلحظ آيات ركَّزت عليها الشريعة في (التنزيل المكي) وآيات اهتمت الشريعة بتوضيحها أكثر في (التنزيل المدني)، ولكلٍ من هذين التنزيلين حِكَمٌ وأسرار، فالتنزيل المكي له مزايا وخصائص ومقاصد عامَّة تحكمه من قبيل:

١) تفصيل العقيدة، وإيضاح معانيها، وأركانها، والتركيز عليها لتثبيت قلوب المؤمنين.
٢) إيراد خصائص عامَّة كُليَّة في مجال التشريع الإسلامية، والحث على الأخلاق الكريمة، والآداب الفاضلة.
٣) الإكثار من ذكر قصص الأنبياء والمرسلين في دعوتهم لقومهم، وذكر قصص الأمم في الأزمنة الغابرة، لأخذ العظة والعبرة، وتثبيت قلب رسول الله في طريق الدعوة.

أمَّا (التنزيل المدني) فإنَّ من خصائصه ومزاياه ومقاصده:

١) تفصيل أنواع العبادات المفروضة، وبيان أحكام المعاملات، والجهاد، والعلاقات الدولية، وأحكام المواريث، وأحكام الأسرة، وأحكام الحدود والعقوبات.

---

٨١) التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور : (١٦ / ٢٣١).

٨٢) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن ، رقم: (٤٧٠٧).

٢) فضح المنافقين، وبيان طرقهم وأساليبهم للصد عن الدعوة، وتبيين خطرهم على أمَّة الإسلام.

٣) التركيز على مجادلة أهل الكتاب ومحاورتهم، ونقض شبههم، ودعوتهم إلى الدين الحنيف.

يتجلَّى لنا من خلال ذلك عدد من المقاصد التي نتعرَّف عليها وقت نظرنا في بدء التنزيل، وترتيب نزوله، وأسباب نزوله، لجلب أفكار متعلّقة بمقاصد التنزيل القرآني بدءاً ببدء، وتقديم آيات على آخرى، وسور على سور، وما ذلك إلاَ لحكمة بالغة ومقاصد سامقة.

فكان لفقه وتدبُّر أسباب النزول القرآني توقيتاً وحالاً وزماناً ومكاناً، له علاقة لفهم مقاصد القرآن، واستخراج المعاني والحِكَمِ المنبثقة منها، وفي هذا قال الواحدي عن أسباب النزول: "إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية، وقصد سبيلها دون الوقوف إلى قصتها وبيان نزولها"([٨٣]).

ويقول الإمام ابن تيمية: "ومعرفة سبب النزول يُعِين على فهْم الآية؛ فإنَّ العلم بالسبب يُورِث العلم بالمسبب؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنَّه إذا لم يُعرَف ما نَواه الحالف، رجَع إلى سبب يَمِينه"([٨٤])

٢-مسؤولية التعامل مع التعليل القرآني وبيان أوجه العلَّة في النص القرآني.

إنَّ الناظر لكتاب الله تعالى بعد أن يكون مؤهلاً في العلم الشرعي، وعنده من الأساسات الكافية التي تجعله يُحسن النظر في كتاب الله، ليستخرج ما فيه من مقاصد وأسرار؛ بإمكانه حائزٍ القدرة على استخراج هذه المقاصد، بعد توفيق الله تعالى له.

فالقارئ في كتاب الله تعالى سيقف على الكثير من أوجه التعليل القرآني، وبيان متعلّقاته، بطرق مختلفة، وأساليب متنوعة، وهذا لا يُمكن أن يُحصر في تشكيلة واحدة فحسب.

والعلل على أهميّتها ، وذكر الأسباب على ضرورها، لا يُمكن أن نستخرج من كل علّة مقصداً نعتبره غائياً نهائياً، بل قد تكون تلك العلل وسائل نستعين بها من خلال النظر في عدد منها في عشرات النصوص القرآنية لكي تكون هي وسائل عِلَلِيَّة للتوصُّل إلى المقاصد القرآنيَّة.

لقد جعل الإمام الشاطبي أنّ من الجهات التي تعرف بها مقاصد الشارع: اعتبار علل الأحكام، لأنَّ الشارع إذا شرع حكما لعلة من العلل،وربطه بها وجودا وعدما، فإذن هو قاصد لاعتبار ذلك الحكم في كل واقعة توفرت فيها تلك العلة، فالعلل علامة على المقاصد، وفي هذا يقول الإمام الشاطبي:" فإذا تعينت؛عُلم أن مقصود الشارع ما اقتضته تلك العلل من الفعل أو عدمه ومن التسبب أو عدمه"([٨٥]).

---

[٨٣]) أسباب النزول، الواحدي، ص٤، ٥.

[٨٤]) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ص٣٩.

[٨٥]) الموافقات للشاطبي: (٢ / ٣٩٤) .

لكن لابدَّ من التنبُّه لخصلة مهمة في هذه البابة المقاصديَّة، وهي أنَّه ليست كل عبارة نراها في القرآن من قبيل:(من أجل ذلك) أو (ولذلك) وغيرها من الكلمات المشابهة لهما في القرآن، فإنَّه لا يمكن جعلها مقصداً؛ إلاَّ إن كانت هنالك وحدة موضوعيَّة يُمكن أن نلحظ تركيز القرآن الكريم عليها بشكل واضح، سواء من بيان وجه تعليلها، وكثرة ذكرها بأشكال التوجيه، أو بِطُرُقِ الدفاع، أو ذكرها في أساليب الدعوة، أو بيانها بأشكال مُختلفة، أو ذكرها في قصص الأنبياء، أو بيان ما يترتب على تركها من عقاب، وما يكون على فعلها من ثواب، فكلُّ ذلك يُمكن تحييزه ليكون بالفعل عبارة عن ظاهرة قرآنية اهتم بها النص القرآني، ليكون مقصداً شرعياً قد ركَّز عليها ، ولعلَّنا في هذا الحالة نضرب مثلاً جلياً لتوضيح هذه الصورة، مثل قضيَّة: (الاهتمام بتثبيت العقيدة الصحيحة والدعوة إليها وكشف دعاوى المناوئين لها) فهذه قضيَّة أخذت جزءاً كبيراً من كتاب الله تعالى توضيحاً وتفسيراً وشرحاً وبياناً وأمثالاً وحِكماً وحُكماً، ما جعل بعض أهل العلم يقولون :(القرآن كلُّه توحيد)، وهو شيء واضح لكل ذي عينين، أو لمن ألقى السمع وهو شهيد.

٣-التتبع والاستقراءلاستخراج القضايا الكليَّة المُكرَّرة في ظواهر النص القرآني.

فهنالك مقاصد لا يمكن معرفتها إلاَّ بالنظر إلى ظواهر النص القرآني، وما فيها من أمر ونهي، باعتبار أنَّها الوعاء الذي نستشفُّ منه طريقة القرآن في الكشف عن أوجه البيان الحقيقي، بالنظر إلى منطوقه ومفهومه للتوصُّل إلى معقوله ومقصوده.

وبالتفاتة إلى سور القرآن الكريم فإنَّ بإمكان الناظر فيه أن يستشفَّ معانيه، ويتنشَّق مغانيه، ويرتسم في ذهنه ما توحي إليه آياته من معاني وأسرار لطيفة خفيَّة، وذلك بتتبع واستقراء ما في كتاب الله تعالى من هاتيك الحِكم .

وهو مسلك الشاطبي الأثير في تتبع مقاصد الشريعة حيث يقول عنه في الصفحات الأولى من كتابه الموافقات "ولما بدا من مكنون السر ما بدا، ووفق الله الكريم لما شاء منه وهدى، لم أزل أقيد من أوابده وأضم من شوارده تفاصيل وجملا، معتمدا على الاستقراءات الكليّة ...في بيان المقاصد الشرعية"(٨٦).

بل اعتبر ابن عاشور الاستقراء المسلك الأول من مسالك إثبات المقاصد(٨٧).

وعليه؛ فجدير لقاصد النظر أن يطَّلِعَإلى تلك المقاصد القرآنية، من خلال عمليَّة إجرائيَّة استقرائيَّة تتبعيَّة، وذلك بالبدء بقراءة القرآن الكريم قراءة تدبر، ومن ثمَّ النظر إلى ما يُركِّز عليه القرآن ويقصده من تلك المعاني، فيبدأ بسورة الفاتحة، فالبقرة، فآل عمران، فالنساء، فالمائدة، فالأنعام، وهكذا دواليك، ويُسجِّل ملاحظاته الخاصَّة، والوحدة الموضوعيَّة التي ناقشتها السورة القرآنية، وأهدافها العامَّة، وخصائصها التي

---

٨٦) الموافقات، الشاطبي : (١ / ٩).

٨٧) مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور، ص ٢٠ .

ركّزت عليها، وما كشفت عنه هذه السورة من معاني، فسيستجلب عنده تحت كل سورة تلك القضايا التي رأى أنَّ السورة ركّزت عليها، ومن ثمَّ يُعيد النظر مراراً وتكراراً في تدبر كتاب الله؛ ليتضح له بعد ذلك معالم المقاصد في سور القرآن الكريم، وهي المقاصد النهائيَّة التي كشف عنها القرآن من خلال سوره وآياته.

وكمثال على البحث في هذا المسلك فسنجد أنَّ كتاب الله تعالى يُركِّز كثيراً على بيان تزكية الأنفس، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، فلا تخلو الآيات منه بالمئات تترى لتوضّح ضرورة التأدب والتخلق بالأخلاق الحسنة والصفات الفضيلة، مما يمكن جداً أن يكون مقصداً قرآنياً جامعاً ركّز عليه القرآن وبيّن أوجهه بأضرب مُختلفة.

٤-تدبر الأوامر والنواهي وما ينتج عنها من آثار ونتائج دنيويَّة وأخرويَّة.

فإنَّ الأمر والنهي في كتاب الله تعالى ليوضح ببرهان جلي ناصع، مراد الله تعالى من هذه الشريعة التي شرعها لنا، ولا تكون هذه الشريعة واضحة؛ إلاَّ بالتوسُّع في فهم الأوامر والنواهي.

إنَّ الناظر في سورة واحدة كسورة البقرة التي ذكر العلماء أنَّ فيها ألف أمر، وألف نهي، بل ورد في الأثر أنَّها فسطاط القرآن، والمدينة الجامعة، وحسبنا هذه السورة؛ لتدبُّر أوامرها والحديث عن مقاصدها، فكم سيتأتّى للنظر المتعمّق فيها من وقت لتدبر المقاصدي تعرف من خلال فقه النظر فيه، واستنباط ما فيه من معاني، وهي سورة واحدة، فما البال ببقيَّة سور القرآن؟!

إنَّ في الأوامر والنواهي التي جاءت عن الله تعالى؛ لدلالة عميقة نستوحيها من معرفتنا أنَّه تعالى لا يأمرنا إلاَّ بكل نافع، ولا ينهى عباده إلاَّ عن كل ضار، ولكل أمر نتيجته الدنيويَّة بالتوفيق والتيسير لمن طبقَّها، والأخرويَّة في الجزاء العادل والثواب الذي يستحقه صاحبه في الجنة، وكذلك النواهي فإنَّ فيها ارتكابا للمحظور ومجانبة المأمور، والشعور بالضيق والتقصير في الدنيا، واستحقاق صاحبه الحساب أو العقاب في الآخرة عند أعدل العادلين تبارك وتعالى.

ولهذه الأوامر والنواهي أسباب وعلل، وعنها ينتج ونعرف المقاصد المتحقِّقة من فريضة الأوامر بشكل عام، ومحظوريَّة النواهي بشكل عام، ونتعرَّف على مقاصد الشرع منها، مع أنَّ كثيراً من الأوامر و النواهي الضمنية خفية في الدلالة على قصد الشارع ،إذ لاتفيده مجردة و إنما بما يحف بها من قرائن، وهذا يستحق معرفة بالغة في طريقة الاستنباط وفقه الاستخراج لتلك القرائن ومقايستها مع بعضها البعض للتحصُّل على المقصد الشرعي من الأوامر بشكل عام أو من بعض الأوامر والنواهي كمقاصد جزئيَّة تبعاً للمقصد الكلي العام في الأمر والنهي.

٥-إبراز المقاصد وفق مقتضيات لسان العرب.

لا يليق للمتدبِّر كتاب الله تعالى القيام بعمليَّة بحث مقاصدي في نصوصه،وهو ضعيف المكنة العلميَّة باللغة العربيَّة، ولم يقرأ في كتبها نحواً وصرفاً ولغةً وشعراً وأدباً ودلالة، فالقرآن نزل بلغة العرب،

وبمختصرات علميَّة مُفيدة تحدَّث العلماء عن فضل العربيَّة وضرورتها للناظر في كتاب الله تعالى، ف:"ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب"(٨٨) كما قال الإمام الشافعي، بل "لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلَّم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"(٨٩) كما قال الإمام مجاهد المكي، و"كل معنى مستنبط من القرآن غير جارٍ على اللسان العربي ، فليس من علوم القرآن في شيء، لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به، ومن ادَّعى فيه ذلك فهو في دعواه مبطل"(٩٠)كما أخبر الإمام الشاطبي.

وقد نصَّ أهل العلم على أنَّ المرء لا يُمكنه التعاطي مع أسرار القرآن ومعاني التنزيل إلاَّ إن كان لديه علم باللغة العربية من فهم البيان والمعاني فقال (لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي المعاني والبيان، ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من كتاب الله تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها في مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة) (٩١).

وفي مقدِّمة تفسير الإمام القرطبي تحدّث عن ضوابط التفسير اللغوي، فقال محذِّراً:"أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة ، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ؛ فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي . والنقل والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط . والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة ، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر ؛ ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝٥٩﴾الإسراء: ٥٩معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ، ولا يدري بماذا ظلموا ، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم ، فهذا من الحذف والإضمار ؛ وأمثال هذا في القرآن كثير ، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه"(٩٢).

فليس هنالك مسلك أفضل لتتبع مقاصد القرآن في كتاب الرحمن، إلاَّ بفهمه وفقهه على لغة العرب ولسانهم؛ وكم من مقاصد فاسدة استخرجت أو استنتجت من أناس أفسدتهم العجمة، أو كان فقههم

---

٨٨) الرسالة، الشافعي، ص ١٢٨ .

٨٩) البرهان للزركشي (١/٣٩٦) .

٩٠) الموافقات للشاطبي (٤/ ٢٢٤ – ٢٢٥).

٩١) التحرير والتنوير مع اختصار وتصرف،الطاهر بن عاشور: (١/١٨ -٢٣)

٩٢) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي : (١ / ٤٦ – ٤٧).

للسان العرب ضئيلاً فجرَّوا على أمَّة الإسلام ويلات فكريَّة، بسبب جنايتهم على كتاب الله وجنايتهم في حقِّ أنفسهم إذ لم يفقهوا اللسان العربي على أصوله.

لقد نصَّ الإمام الشاطبي لمن يريد النظر في القرآن أن يسلك في "الاستنباط منه والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها، ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة ، فإن كثيراً من الناس يأخذون أدلة القرآن بحسب ما يعطيه العقل فيها ، لا بحسب ما يفهم من طريق الوضع ، وفي ذلك فساد كبير ، وخروج عن مقصود الشارع"(٩٣).

٦-النظر إلى سياق الآية والتفكُّر في سباقها ولحاقها:

إنَّ من فقه النظر في الآية؛ لاستخراج علومها أن ينظر المرء إلى سياقها العام التي وردت فيه، ثمَّ ينظر إلى سباقها ولحاقها، فلقد قال ابن مسعودٍ رضي الله عنه:"إذا سأَلَ أحدُكم صاحِبَهُ كيف يقرأ آيةَ كذا وكذا، فَلْيَسَلْهُ عَمّا قبلَها"(٩٤).

وقال مسلم بن يسار:"إذا حدَّثْتَ عن اللهِ حديثاً فقف حتى تنظُرَ ما قبلَهُ وما بعَده"(٩٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ":فمن تدبر القرآن، وتدبر ماقبل الآية وما بعدها، وعرف مقصود القرآن، تبيّن له المراد، وعرف الهدى والرسالة، وعرف السداد من الانحراف والاعوجاج، وأما تفسيره بمجرد ما يحتمله اللفظ المجرد عن سائر ما يبين معناه، فهذا منشأ الغلط من الغالطين"(٩٦).

وقال كذلك شيخ الإسلام ابن تيمية :"ينظر في كل آية بخصوصها وسياقها وما يبين معناها ، فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والاستدلال به مطلقاً ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب وطرد الدليل ونقضه فهو نافع في كل علم خبري أو إنشائي وفي كل استدلال أو معارضة من الكتاب والسنة وفي سائر أدلة الخلق"(٩٧).

إذن، فَضَمِّ النصوص بعضها مع بعض سيُخرج لنا فهماً زائداً عمَّا يختاره من أحكام، ولقد تكلَّم ابن القيِّم رحمه الله عن مراتب الناس المتفاوتة في الفهم، فقال:"مِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ حُكْمًا أَوْ حُكْمَيْنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْهَمُ مِنْهَا عَشَرَةَ أَحْكَامٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ فِي الْفَهْمِ عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ دُونَ سِيَاقِهِ وَدُونَ إيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ وَتَنْبِيهِهِ وَاعْتِبَارِهِ ، وَأَخَصُّ مِنْ هَذَا وَأَلْطَفُ ضَمُّهُ إلَى نَصٍّ آخَرَ مُتَعَلِّقٌ بِهِ

---

٩٣) الموافقات، الشاطبي : (١ / ٣٩).

٩٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف، رقم : (٥٩٨٨).

٩٥) تفسير ابن كثير : (١/ ١٣).

٩٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (١٥ /٩٤)

٩٧) مجموع فتاوى ابن تيمية : (٦ / ١٨).

فَيَفْهَمُ مِنْ اقْتِرَانِهِ بِهِ قَدْرًا زَائِدًا عَلَى ذَلِكَ اللَّفْظِ بِمُفْرَدِهِ، وَهَذَا بَابٌ عَجِيبٌ مِنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ لَا يَتَنَبَّهُ لَهُ إلَّا النَّادِرُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الذِّهْنَ قَدْ لَا يَشْعُرُ بِارْتِبَاطِ هَذَا بِهَذَا وَتَعَلُّقِهِ بِهِ"(٩٨).

ويقول الإمام الشاطبي (لا بد من رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره؛ وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف"(٩٩).

ونقل الزركشي عن العز بن عبد السلام قوله:"فالسياق يُرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات"(١٠٠)

٧-نصُّ أهل العلم المحققين على موضوعات السور ومقاصدها وأهدافها:

قد ذكر بعض العلماء أنَّ سورة الفاتحة فيها جميع أسرار القرآن بل فيها جميع محامد الرب تبارك وتعالى.

وذكروا أنَّ سورة البقرة هي المدينة الجامعة، أو فسطاط القرآن، وفيها كليات الدين، وبيان لأعداء المسلمين.

وأنّ سورة آل عمران فيها نقض لشبهات الكفار ومحاججتهم.

وأنَّ سورة النساء فيها بيان لأحكام النساء والزوجات وقسمة التركات والعدل.

وأنَّ سورة المائدة فيها بيان للعهود والعقود والمواثيق.

وأنَّ سورة الأنعام بيان لقضيَّة التوحيد والتركيز عليها.

وأنّ سورة الأعراف فيها بيان لقصص بني إسرائيل.

وأنّ سورة النحل فيها ذكر لعدد من النِّعم.

وأنَّ سورة الكهف فيها بيان لأنواع منالابتلاء.

وأنَّ سورة الإسراء هي سورة بني إسرائيل.

وأنَّ سورة العنكبوت بيان لأنواع الفتنة.

وأنَّ سورة الكافرون فيها الحديث عن توحيد العبادة، والبراءة من المشركين.

وأنَّ سورة الإخلاص فيها حديث عن توحيد الخالق، وتوحيد الأسماء والصفات.

إلى غير ذلك من القضايا التي نصَّ عليها العلماء في كتبهم، ويُمكن معرفة الأسرار المقاصديَّة كذلك، من ناحية التعرُّف على أسماء السور القرآنية، فلكلٍّ اسم دلالته وهدفه ومضمونه وموضوعه.

---

٩٨) أعلام الموقعين: ابن قيم الجوزية: (١/ ٣٥٤).

٩٩)الموافقات ، الشاطبي، ج ٤ ص ٢٦٧

١٠٠) البحر المحيط في الأصول، الزركشي : (٨ / ٥٥)

ويُمكن التعرّف على بعض المقاصد من خلال فواتح السورة وأولّها، ولابن القيم تفصيل لطيف في كتابه "بدائع الفوائد" تأكيد على تأثير مطالع السور -ولو كانت حروفًا- على ما تتضمنه تلك السور من معانٍ.

ونختم هذه الفقرة بكلام جميل للبقاعي، إذ يقول:"وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب أن اسم كل سورة مترجِم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمَّاه عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه"([١٠١]).

٨-اتباع الهدى التدبري لا الهوى التَّحجُّري:

كم أثَّر الهوى المصاحب على صاحبه في استعجال إثبات مقصد قرآني لغاية في نفس الشخص الذي يُريد من جرَّائها إثبات حُكم ما والسير على مُنواله، سواء أكان ذلك في القضايا القانونيَّة، أو الفكريَّة، أو الحقوقيَّة، ومثل هذا يوجد عند فئة من الكتَاب استخدمت القرآن مقاصدياً بترتيب رأي عقلي عندها بداءة ثمَّ البحث عمَّا يرونه أنَّه سيخدمهم به ثانياً؛ لتأصيله والتركيز عليه ثالثا، وجعله من منطلقات البعث القرآني المقاصدي، وتحوير النصوص والآيات التي تأتي مُكمِّلة أو شارحة أو مقيدة لتلك الآية أو الآيتين التي استقى منها ذلك الباحث مقصداً وجعله مقصداً عاماً، بسوء تدبر وروح استعجال، ولربما وجدناهم يُحاولون تعسُّفاً إلغاء دلالات النصوص، وفهم الإسلام عبر رؤاهم المقاصديَّة لا مقاصده الشرعية، وكُلُّ ما يقومون به عبارة عن تأويلات باطلة لا مكان لها في ساحة العلم، ولهذا قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى : "قال بعض الأصوليين :كل تأويل يرفع النص أو شيئا منه فهو باطل"([١٠٢]).

ويناسب جداً إيراد كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية عنهم، حيث قال:"إنَّ مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً، ثمَّ حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم"([١٠٣]).

إنَّ البليَّة أن يكون للمتعامل مع القرآن رأي أو هوى فيتأوَّله ليصل إلى المقصد الوهمي الذي يتطلَّبه بكل وسيلة عن قصد هوى لا هدى، فيقع العبد بمقصد وهمي ظاناً أنَّه قد سار على طريقة المقاصديين وما هو منهم ولا هم منه، بل لقد حذَّر من طرقهم الشيخ ابن عاشور فقال: "التي يخترعها الوهم من نفسه دون أن تصل إليه من شيء محقق في الخارج"([١٠٤]).

---

١٠١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، البقاعي : (١/١٩).

١٠٢) المستصفى، الغزالي، (٢ / ٥٩).

١٠٣) مجموع فتاوى ابن تيمية : (١٣ / ٣٥٨).

١٠٤) مقاصد الشريعة، ابن عاشور، ص ٥٣، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، ص٢٩ – ٣٠ .

قد يكون ذلك الوهم من قبيل سوء الفهم كذلك ، فإنَّ بعض من يبحث في قضيَّة المقاصد يظنُّ أنَّه إن قرأ عدَّة كُتب فيها صار من أهل الاجتهاد في تحقيق غاياتها، وهذا غلط بيِّن، وهو تسيُّب واضح في استخدام المجال المقاصدي لما يحلو له ذكره من مقاصد، ولقد بيَّن العلماء أنَّ هذه وظيفة أهل العلم الذين عُرِفوا بمدارسة العلم ومعرفته، لا عوام الناس المكلفين؛ لذلك يقع من بعض الناس إساءة في تدبُّر نصوص القرآن، فيعمد لاستخراج مقاصد لا تساعده في تحقيق أمله وبغيته، فلا هي قد ذكرها العلماء أو أحدهم قبله، ولا هي واضحة في معنى تثبيتها كمقصد قرآني.

المطلب الثالث:

ملامح التدبر الحسان لإبراز مقاصد القرآن.

إذ ننتقل من ضفّة (مقاصد تدبر القرآن) إلى الضفَّة الأخرى (تدبُّر مقاصد القرآن)، فسنرى فيها غايات لكلِّ متعبِّد لله ولفهم آياته قاصد، وإذا كان لتلاوة القرآن أجر عظيم، ولتدبُّره أجر أعظم، فإنَّ للتفقُّه في معانيه ومقاصده أجور جِسام، غير أنَّ هذا لا ينبغي أن يصرف العبد عن الناحيَّة التي تسعده قلبياً؛ وتبهجه روحياً ألا وهي: العمل بما تدبَّره من مقاصد، والقيام بمقاصد التدبّر.

ولكم شاهدنا من أناس يقضون ساعات طوال في البحث عن معاني القرآن، وإعجازه، ودلالاته، وآياته العظام في آياته، وسوره العالية في سُوَرِه، لكن لم يتحقَّق لهم معنى القيام بالمقاصد، ولم يتأتَّ لهم تحقيق ما تحقّقوا منه في تدبرهم لمقاصد القرآن، وقيامهم بالمقصد من تدبر القرآن!

وقد يصرف الله تعالى قلوبهم عن المزيد من ذلك حينما يكون مُراد الشخص التلذذ بذلك العلم، أو أنَّه صادف قلباً هاوياً للبحث فيه، فآيات الذكر الحكيم لو أعطت الإنسان مرَّة ومرتين فلن تعطيه مراراً إن كان العبد قد غفل عن حقيقة القرآن وجوهره العظيم، فثبت من ذلك أنَّ الانشغال بالجانب المقاصدي عن الجانب القصدي من العبادات فيه مشكلة، وأنَّ الانشغال بالجانب المقاصدي في التدبر للقرآن، أو الجانب التدبري في البحث عن مقاصده، ما لم يكن من ورائه عمل فإنَّه يُخشى عليهم أن يتَخذوا القرآن مهجوراً ولو نادوا كل صباح ومساء بضرورة تناول الآيات القرآنية، فتناولها بما ذكروه مهم، وتناولها بالعمل وتحقيقها على أرض الواقع هو الغاية النهائيَّة من ذلك!

إنَّنا إذ ندلف لذكر المقاصد القرآنية، ونقصد لإيرادها في هذا المطلب المختصر، من خلال تأمل يسير وتدبر متواضع لنصوص القرآن الكريم، وبمُختصر القول ومُعتصر العبارة، فقد وجدت أنَّ مقاصد القرآن يُمكن أن تكون أن تُقسِّم ذلك لعدَّة تقسيمات:

فهنالك مقاصد كليَّة عامة للقرآن.

وهنالك مقاصد خاصَّة لكل سورة من سور القرآن الكريم.

وهنالك مقاصد قرآنية في ضوء الضرورات الخمس.

وهنالك مقاصد تُذكر في دوائر: (الضروريات)و(الحاجيات) و(التحسينيات).

وهنالك مقاصد تفصيليَّة قد تستخرج من آيات قد جمعت عدداً من المقاصد العظيمة في كلماتها.

وربَّما لا يُسعفنا الحديث عن جمع هذه الجوانب؛ إلاَّ أنَّنا سنُركِّز في هذا المطلب على ثلاثة قضايا:

- **القضيَّة الأولى: أبرز كلام العلماء في حديثهم عن المقاصد القرآنية.**
- **القضيَّة الثالثة: الضرورات الخمس وبُعدها المقاصدي،وذكر شواهد آياتها.**
- **القضيَّة الثانية: إبراز أهم ما يتبيَّن للباحث من مقاصد قرآنية برؤية تدبُّرية.**

القضية الأُولى:

أبرز كلام العلماء في حديثهم عن المقاصد القرآنية

إذ نُفتّشُ ونُنَقِّبُ عن المقاصد الكليَّة العامَّة في كتاب الله تعالى، فجدير بنا وخليق أن نذكر أبرز العلماء الذين تكلَّموا عن المقاصد باعتبارها مقاصد عامة كليَّة للقرآن الكريم.

وبحسب تتبعُّي لكلامهم، فلقد وجدتُ أنَّ بعضهم حاول أن يختصرها في كلمات قصيرات كالعز بن عبد السلام، والفخر الرازي،والآلوسي، ومحمد الغزالي،والنورسي.

وأفاض بعضهم في ذكرها، كأبي حامد الغزالي، والطاهر بن عاشور، ومحمد رشيد رضا، ومحمد عبده، ومحمد الغزالي، ويوسف القرضاوي.

وباطِّلاعة سريعة على ما كتبوه في ذلك، وأكثرها انتشاراً وبياناً وتأثيراً، أسرد أقوالهم على هذا النحو:

- **أبو حامد الغزالي:**

حيث قال:"سرُّ القرآن، ولُبَابُه الأصفى، ومقصدُهُ الأقصى، دعوَةُ العباد إلى الجَبَّار الأعلى، ربِّ الآخرةِ والأولى، خالق السماوات العُلَى، والأرَضين السُفلى، وما بينهما وما تحت الثَّرَى، فلذلك انحصرت سُوَرُ القرآن وآياتُه في ستة أنواع:

– ثلاثة منها: هي السوابق والأصول المهِمّة.

– وثلاثة: هي الرَّوادف والتوابع المغْنِيَة المتِمَّة.

أما الثلاثة المهِمَّة فهي:

(١) تعريف المدعو إليه.

(٢) وتعريف الصراط المستقيم الذي تجب ملازمته في السلوك إليه.

(٣) وتعريف الحال عند الوصول إليه.

وأما الثلاثة المغْنِيَة المتِمَّة:

– فأحدها: تعريف أحوال المجيبين للدعوة ولطائف صُنع الله فيهم؛ وسِرُّهُ ومقصودُه التشويقُ والترغيبُ، وتعريفُ أحوال النَّاكبين والنَّاكلين عن الإجابة وكيفيةُ قمعِ الله لهم وتنكيلِهِ لهم؛ وسِرُّهُ ومقصوده الاعتبار والترهيب.

وثانيها: حكاية أحوال الجاحدين، وكَشْفُ فضائحهم وجهلهم بالمجادلة والمحاجَّة على الحق، وسِرُّه ومقصوده في جنب الباطل الإفضاحُ والتَّنْفير، وفي جَنب الحق الإيضاحُ والتَّثْبيتُ والتَّقهير.

وثالثها: تعريف عمارة منازل الطريق، وكيفية أخذ الزاد والأُهبة والاستعداد.

فهذه ستة أقسام"(١٠٥).

- **الفخر الرازي:**

فلقد استخلص المقاصد القرآنية من سورة واحدة، فقد قال:"المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة: (الإلهيات، والمعاد، والنبوات، وإثبات القضاء والقدر) واستخرجها من سورة واحدة وهي سورة الفاتحة حيث قال: (فقوله (الحمد لله رب العالمين) يدل على الإلهيات.

وقوله (مالك يوم الدين) يدل على نفي الجبر، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره

وقوله (اهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله وعلى النبوات فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الاربعة التي هي المقصد الأعظم من القرآن"(١٠٦).

- **العز بن عبد السلام:**

فقد أجمل المقاصد تحت قضيَّة واحدة وركَّز عليها في عدَّ مواطن، فقال:"معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح، وأسبابها والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها"(١٠٧).

وقال:"ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة لعلمنا أن الله أمر بكل خير دقه وجله وزجر عن كل شر دقه وجله، فإن الخير يُعبِّر به عن جلب المصالح، ودرء المفاسد، والشر يُعبَّر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح"(١٠٨).

وقال في موطن آخر:"وَالشَّرِيعَةُ طَافِحَةٌ بِذَلِكَ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ جَمِيعًا قَوْله تَعَالَى: ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ**﴾المائدة: ٢وَهَذَا نَهْيٌ عَنْ التَّسَبُّبِ إلَى الْمَفَاسِدِ، وَأَمْرٌ بِالتَّسَبُّبِ إلَى تَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وقَوْله تَعَالَى: ﴿ ۞ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ** ﴾النحل: ٩٠، وَهَذَا أَمْرٌ بِالْمَصَالِحِ وَأَسْبَابِهَا، وَنَهْيٌ عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ، وَهَذَا نَهْيٌ عَنْ الْمَفَاسِدِ وَأَسْبَابِهَا،

---

١٠٥) جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، ص ٢٣، ٢٤.

١٠٦) التفسير الكبير، الفخر الرازي، (١/١٤٥).

١٠٧) قواعد الأحكام ومصالح الأنام، العز بن عبد السلام، : (١/ ٨).

١٠٨) المرجع السابق : (٢ / ١٨٩)

وَالْآيَاتُ الْآمِرَةُ بِالْإِصْلَاحِ وَالزَّاجِرَةِ عَنْ الْإِفْسَادِ كَثِيرَةٌ ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْأَمْرِ الْمُتَعَلِّقِ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ ، وَعَنْ النَّهْيِ عَلَى الْإِفْسَادِ الْمُتَعَلِّقِ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ"(١٠٩).

- **الزركشي:**

فقد لخّص المقاصد بقوله: "القصد من إنزال القرآن تعليم الحلال والحرام، وتعريف شرائع الإسلام وقواعد الإيمان"(١١٠).

- **البقاعي:**

فقد اختصر الحديث عن المقاصد القرآني، فقال: "وباعتبار أن مقاصده كلها محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص،وكانت هذه السورة منه قد تكفلت بجميع ما يتعلق بالبحث عن الذات على سبيل التعريض والإيماء ، وكانت معادلة لثلث القرآن"(١١١).

- **الدهلوي:**

فلقد قال: "إن معاني القرآن المنطوقة تشتمل على:علم الأحكام من: الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والحرام من قسم العبادات، أو من قسم المعاملات، أو من تدبير المنزل، أو من السياسة المدنية، وتفصيل هذا العلم منوط بذمة الفقيه . وعلم المخاصمة والرد على الفرق الضالة الأربع من اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين. وبيان هذا العلم منوط بذمة المتكلم . وعلم التذكير بآلاء الله تعالى من بيان خلق السماوات والأرضيين، وإلهام العباد ما ينبغي لهم، ومن بيان صفات الله سبحانه وتعالى من جنس تنعيم المطيعين وتعذيب المجرمين . وعلم التذكير بالموت وما بعده من الحشر والنشر والحساب والميزان والجنة والنار" ثم يعقب بعد هذا البيان قائلاً: "إن المقصد الأصلي من نزول القرآن تهذيب النفوس البشرية، ودمغ العقائد الباطلة ونفي الأعمال الفاسدة، فوجود العقائد الباطلة في المكلفين سبب لنزول آيات المخاصمة، ووجود الأعمال الفاسدة، وجريان المظالم فيما بينهم سبب لنزول آيات الأحكام وعدم تيقظهم بأعداد ذكر آلاء الله وأيام الله ووقائع الموت وما بعده سبب لنزول آيات التذكير"(١١٢).

- **الآلوسي:**

حيث قال في تفسيره لسورة الكافرون:" لعل الأقرب أن يقال إن مقاصد القرآن التوحيد والأحكام الشرعية وأحوال المعاد والتوحيد عبارة عن تخصيص الله تعالى بالعبادة وهو الذي دعا إليه الأنبياء عليهم السلام أولا بالذات والتخصيص إنما يحصل بنفي عبادة غيره تعالى وعبادة الله عز وجل إذ التخصيص له

---

١٠٩) المرجع السابق : (١/ ١٥٦)

١١٠) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : (١/ ٤٢١)

١١١) نظم الدرر ، البقاعي : (٢٢/ ٣٨٥)

١١٢) الفوز الكبير في أصول التفسير ، الدهلوي، ص ٤

جزآن النفي عن الغير والإثبات للمخصص به،فصارت المقاصد بهذا الاعتبار أربعة. وهذه السورة تشتمل على ترك عبادة غيره سبحانه والتبري منها فصارت بهذا الاعتبار ربع القرآن ولكونها ليس فيها التصريح بالأمر بعبادة الله عز وجل كما أن فيها التصريح بترك عبادة غيره تعالى لم تكن كنصف القرآن وقيل: إن مقاصد القرآن صفاته تعالى والنبوات والأحكام والمواعظ وهي مشتملة على أساس الأول وهو التوحيد ولذا عدلت ربعه"([١١٣]).

- **ابن عاشور:**

ذكر أنَّ هنالك مقاصد عليا في القرآن الكريم، وسأذكرها مُختصرة، حيث قال: "المقاصد الأصلية التي جاء القرآن لتبيانها بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا ثمانية أمور :

هو صلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية . ثم قال وتفصيل هذا :

أن الصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس وتزكيتها ، ورأس الأمر فيه صلاح الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير ، ثم صلاح السريرة الخاصة ، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر).

وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي . إذ الأفراد أجزاء المجتمع ، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات ومواثبة القوى النفسانية ...الخ ما قال في مقدمته .

وأما المقاصد الأصلية التي تندرج تحت هذا المقصد الأعلى فهي حسب استقراء ابن عاشور ثمانية يمكن أن نلخصها في النقاط التالية :

١- إصلاح الاعتقاد ، وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق.

٢- تهذيب الأخلاق .

٣- التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة .

٤- سياسة الأمة وفيه صلاح الأمة وحفظ نظامها .

٥- القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم والتحذير من مساوئهم .

٦- التعليم بما يناسب عصر المخاطبين وما يؤهلهم لتلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار .

٧- المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير .

٨- الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول"([١١٤])

---

[١١٣]) روح المعاني ، الألوسي ، (٣٠ / ٢٥٠).

[١١٤]) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور : (١/ ٣٨ – ٤٢)،.

- **محمد عبده:**

فلقد قرَّر أن "ما أُنْزل القرآن لأجله أمور هي:

١- التوحيد لأن الناس كانوا وثنيين وإن كان بعضهم يدعي التوحيد.

٢- وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة.

٣- العبادة التي تحيي التوحيد في القلوب وتثبته في النفوس.

٤- بيان سبيل السعادة وكيفية السير فيها الموصل إلى نعيم الدنيا والآخرة.

٥- قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهرياً لأجل الاعتبار واختيار طريق المحسنين ومعرفة سنن الله في البشر"([١١٥]).

- **محمد رشيد رضا:**

فقد حدَّ مقاصد القرآن في عشرة مقاصد رئيسية شاملة:

"المقصد الأول : بيان أركان الدين : التوحيد والبعث والجزاء والعمل الصالح .

الثاني : بيان شؤون النبوة والرسالة ووظائف الرسل .

الثالث: بيان أن الإسلام دين الفطرة السليمة والعقل والفكر والعلم والحكمة والفقه والبرهان والحجة والضمير والوجدان والحرية والاستقلال .

الرابع: بيان الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان : وحدة الأمة،وحدةالجنس البشري،وحدة الدين،وحدة التشريع بالمساواة في العدل،وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد،وحدة الجنسية السياسية الدولية،وحدة القضاء وحده اللغة .

الخامس: بيان مزايا الإسلام العامة في التكاليف الواجبة والمحظورة .

السادس: بيان حكم الإسلام السياسي الدولي نوعه وأساسه وأصوله العامة .

السابع : بيان الإصلاح المالي .

الثامن : إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وفلسفتها .

التاسع : إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية.

العاشر: بيان هداية الإسلام في تحرير الرق"([١١٦]).

- **سعيد النورسي:**

---

[١١٥] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ناقلاً عن أستاذه محمد عبده : (١ /٣٠).

[١١٦] تفسير المنار، محمد رشيد رضا: (١١/ ١٧١ – ٢٣٩) ، والوحي المحمدي ، محمد رشيد رضا، (١٩١ – ٣٤٨).

حيث يرى أن القرآن الكريم جاء لتأكيدقضايا أربع يدور حولها نصوص القرآن وآياته ،ولذلك يقول في إشارات الإعجاز: "إن المقاصد الأساسية منالقرآن وعناصره الأصليةأربعة: التوحيد والنبوة والحشر والعدالة"(١١٧)

- **محمد أبو زهرة :**

فقد ذكر المقاصد الخمس أو الضرورات الخمس المستجلبة من المقاصد العامة للشريعة الإسلامية وأضاف عليها أربعة مقاصد، وفصَّل كلّ مقصد تفصيلاً يليق بمقامه، والمقاصد التي ذكرها هي: الكرامة الإنسانية، العدالة، التعاون الإنساني، الرحمة والمودَّة(١١٨).

- **محمد الغزالي:**

فلقد خصص كتاباً خاصاً تناول فيه أهداف القرآن سماه: المحاور الخمسة للقرآن الكريم ويقرر في هذا الكتاب أن رسالة القرآن وأهدافه تدور على خمسة محاور هي:

١- الله الواحد.
٢- الكون الدال على خالقه.
٣- القصص القرآني.
٤- المعاد والحساب.
٥- التربية والتشريع(١١٩).

- **يوسف القرضاوي:**

يرى أنَّ موضوع مقاصد القرآن، يُمكن تلخيصه في سبعة مقاصد:

١- تصحيح العقائد والتصورات للألوهية والرسالة والجزاء ، وذلك بإرساء دعائم التوحيد .
٢- تقرير كرامة الإنسان وحقوقه .
٣- عبادة الله وتحقيق العبودية لله.
٤- تزكية النفس البشرية.
٥- تكوين الأسرة وإنصاف المرأة .
٦- بناء الأمة الشهيدة على البشرية بأن تكون متميزة عن غيرها .
٧- الدعوة إلى عالم إنساني متعاون"(١٢٠).

---

١١٧) إشارات الإعجاز ، سعيد النورسي : ص:٢٣

١١٨) تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة .

١١٩) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، ١٤٠٩هـ ، دار الشروق.

١٢٠) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، باختصار ص٧٣ – ١٢٣.

هذه النقاط التي أجملناها نقلاً من كلام الباحثين من أهل العلم في قضيَّة مقاصد القرآن، يمكن أن تكون الأشهر والأبرز من كلامهم عنها، ونلحظ فيها:

١) اختزالاً في العبارة عند بعضهم، وشرحاً وتوضحياً عند آخرين.

٢) هنالك مقاصد مشتركة بينهم جلُّهم أو كلَّهم نصَّ عليها باسمها أو بما يُقارب معناها.

٣) هنالك مآخذ على بعض مقاصدهم، قد ناقشها بعض أهل العلم، لسنا في صدد الحديث عنها.

القضيَّة الثانية

الضرورات الخمس المستنبطة من المقاصد القرآنية

حين نتلمّس ملامح المقاصد الشرعيَّة على مبدأ حفظ الضرورات الخمس التي جاءت بها مقاصد الشريعة، فسنجد ما يسعفنا كثيراً من كتاب الله تعالى، حين نتدبَّره لاستخراج عدد من الآيات المتعلِّقة بها، والتي لم يأت بها أهل العلم اعتباطاً، وإنَّما ذكروا هذه الضرورات الخمس؛ كونهم قد استخرجوها من القرآن الكثير من النصوص التي استنبطت هذه الضرورات بناء على النظر فيها.

إنَّ هذه الضرورات الخمس مرتَّبة على النحو التالي:حفظ الدين، حفظ النفس، حفظ العقل، حفظ النسب، حفظ المال.

قال الغزالي رحمه الله: "إن مقصود الشرع من الخلق خمسة : أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة"([١٢١])، ويُبيِّن أبو عبد الله بن الأزرق سبب الاهتمام بهذه الضرورات الخمس : "لأن مصالح الدين والدنيا مبنية على المحافظة عليها، بحيث لو انخرفت لم يبق للدنيا وجود من حيث الانسان المكلف، ولا للآخرة من حيث ما وعد بها.. فلو عدم الدين عدم ترتب الجزاء المرتجى. ولو عدم الإنسان لعدم من يتدين. ولو عدم العقل لارتفع التدبير. ولو عدم النسل لم يمكن البقاء عادة. ولو عدم المال لم يبق عيش"([١٢٢]).

وإنَّ من أهم مهمَّات قضايا بحثنا في تدبُّر مقاصد القرآن الكريم، ألاَّ نُدير طرفنا عن قضيَّة أولاها أهل العلم – عليهم الرحمة والرضوان – في البحث الاستخراجي من نصوص القرآن الكريم ما يسند مبدأً عظيماً بمعرفة حفظ الضرورات الخمس التي حثَّت عليها مقاصد الشريعة وتضمَّنتها، بما يجعلنا نجزم أنَّه ما من صفحة من كتاب الله تعالى إلاَّ ونقرأ فيها آية كريمة تحثُّ على ذلك.

---

[١٢١] المستصفى ، الغزالي، ص:١٧٤.

[١٢٢] بدائع السلك في طبائع الملك ، ابن الأزرق :(١/١٩٤-١٩٥).

وقد حاولت النظر في كتاب الله تعالى ، فجمعت بعض النصوص الدالَّة على كلِّ ضرورة من هذه الضرورات الخمس التي تُعبِّر عن مقاصد القرآن في حفظ هذه الضرورات الخمس؛ لكلِّ بني الإنسان!وهذه الضرورات على النحو التالي:

١) حفظ الدين:

لقد جاءت النصوص القرآنية متوالية تترى في حفظ الدين وحمايته، وحماية كيانه، وصيانة بيضة الإسلام من أن يخدشها أي خادش، فوضع الحمى التي تحمي حظيرة هذا الدين، وصان كرامة المسلمين؛ لئلا يقع منهم ما يُغضب ربَّهم تبارك وتعالى.

وفي هذا يقول العلاَّمة المقاصدي الطاهر ابن عاشور: "مراد الله في كتابه بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطاباً بيناً وتعبدنا بمعرفة مراده والاطلاع عليه"(١٢٣).

وقد قرَّر الإمام الشاطبي – رحمه الله– أنَّ حفظ الدين يقوم على قضيتين:

الأول: حفظ الدين من جانب الوجود، وذلك بالمحافظة على ما يقيم أركانه ويثبت قواعده.

الثاني: حفظ الدين من جانب العدم، وذلك برفع الفساد الواقع أو دفع الفساد المتوقع"(١٢٤).

من أجل ذلك جاءت نصوص كثيرة زاخرة مُزهرة تحثُّ على حفظ الدين وحمايته، وحفظ كيانه، تأسيساً وتثبيتاً لوجوده، ودفعاً ورفعاً لكلِّ ما يُقصد من مجاوزة حدوده.

إنَّ الآيات التي جاءت قاصدة بالحث على حفظ الدين كثيرة، سواء أكان ذلك من حيث التأكيد والتوكيد على الالتزام به والتديُّن، أو النهي عمَّا يُضادُّه من ألوان الكفر والشرك والنفاق ولعلَّنا نذكر طرفاً منها في هذا الصدد:

فلقد بيَّنت شريعة الإسلام أنَّه لا دين صحيح غير الإسلام فقال تعالى:﴿ **وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥** ﴾آل عمران: ٨٥.

﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩** ﴾آل عمران: ١٩.

وبيَّن لنا أنَّ هذا الدين كامل، فلا يجوز لعبد أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه لأنَّ من شرعه هو ربُّ العالمين، وليس للعبد أن يتدخَّل في شريعته فقال تعالى: ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ** ﴾المائدة: ٣.

---

١٢٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور : (١/ ٣٩)،.

١٢٤) الموافقات، الشاطبي: (٢ / ١٨) .

لأجل ذلك كانت دعوة الأنبياء والمرسلين إلى عبادة الله والكفر بالطاغوت، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ**﴾ النحل: ٣٦.

ولهذا حثَّنا تعالى على الدعوة إليه، فقال: ﴿**ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٢٥**﴾ النحل: ١٢٥.

وحفاظاً على الدين شرع الله الجهاد للدفاع عن عقيدة التوحيد، فقال: ﴿**وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٣٩**﴾ الأنفال: ٣٩.

وأمرنا الله تعالى بتحكيم شريعته فقال: ﴿**أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠**﴾ المائدة: ٥٠.

وبيَّن أنَّ من لم يتحاكم إلى شريعته فهو غير مؤمن، قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ۝٦٥**﴾ النساء: ٦٥.

كما أنَّه تعالى نهى عباده عن الشرك وحذَّرهم منه فقال: ﴿**وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٥**﴾ يونس: ١٠٥.

وقال عزَّ وجل: ﴿**قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٦٤**﴾ آل عمران: ٦٤.

وقال عزَّ من قائل: ﴿**۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ**﴾ النساء: ٣٦ونهى عن طاعة المشركين وبيَّن أنَّه المرء يُشرك به في طاعتهم فقال: ﴿**وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ۝١٢١**﴾ الأنعام: ١٢١.

إلى غير ذلك من النصوص المتتابعة، الحاثَّة على قضية هذا الدين، وأهميّة حفظه وحياطته، والنهي عمَّا يُماسُّه من الشرك والنفاق والكفر بالله.

٢) حفظ النفس.

لقد نهى الله تعالى عن قتل الإنسان لنفسه، بما يُسمَّى (الانتحار) فقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ۝٢٩**﴾ النساء: ٢٩.

وجاءت الشريعة بحفظ روح الإنسان، وألاَّ يلقي بنفسه إلى التهلكة، فقال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٩٥**﴾ البقرة: ١٩٥.

ونهانا عزَّ وجلَّ عن قتل الآخرين إلاَّ بالحق، فقال تعالى ﴿**وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ**﴾ الأنعام: ١٥١.

ونهى تعالى على قتل المسلم لأخيه المسلم، فقال تعالى: ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا** (٩٣) ﴾النساء: ٩٣.

وكتب الله القصاص على كلِّ من قتل المسلم قاصداً فقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ** ﴾البقرة: ١٧٨.

وبيَّن تعالى أنَّ من قتل نفساً بغير حق فكأنه قتل جميع الناس؛ لما في ذلك من الاعتداء على كرامة الإنسان معصوم الدم، فقال تعالى: ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ** (٣٢) ﴾المائدة: ٣٢

وبيَّن تعالى أنَّه قد حرَّم على الناس بعض المطعومات لما فيها من ضرر بالغ على أنفسهم، وقياماً منهم بعبوديّة الله والانصياع لأوامره،والانزجار عن نواهيه، وفتح للناس مخرجاً شرعياً في ذلك بجواز الطعام منها في حالة الاضطرار الملجئ، فقال: ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (١١٥) ﴾النحل: ١١٥، وقال تعالى: ﴿ **وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ** ﴾الأنعام: ١١٩.

وحثَّ تعالى على حفظ الأنفس وعدم الإسراف بالطعام لئلاً يختل بنيان الإنسان، فقال : ﴿ ۞ **يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ** (٣١) ﴾الأعراف: ٣١.

وقد حثَّ تعالى عباده على حفظ ألسنتهم من الاعتداء على الآخرين بقولهم وكلامهم، فقال تعالى قال تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا** (٥٣) ﴾الإسراء: ٥٣.

٣) حفظ العقل.

حثَّ الله تبارك وتعالى على القراءة والتعلُّم، والأداة الحقيقيَّة التي يُمكن للمرء أن يقوم بها لأجل ذلك هي أداة العقل، فقال تعالى: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ** (١) **خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ** (٢) **ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ** (٣) **ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ** (٤) **عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** (٥) ﴾العلق: ١ - ٥.

وقد أزرى الله تعالى ونعى على الكفرة والمشركين الذين عطَّلوا ملكة العقل والتفكير في آيات الله وآلاءه، ولم يطلبوا الحق ليدركوه، قال تعالى: ﴿ **أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا** (٤٤) ﴾الفرقان: ٤٤.

وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تُخاطبالعقل؛ علَّه يتَّعظ ويعتبر ويُفكِّر في هذا الكون الفسيح ، وباستعراض بعضها يتبيَّن معناها الذي يُخاطب العقل:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) ﴾الرعد: ٢ - ٤.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) ﴾النحل: ١٠ - ١٢.

لقد جعل الله تعالى العقل البشري مناط التكليف؛ ولهذا فمن نام أو جُنَّ أو لم يبلغ، فإنّ القلم مرفوع عنه، فللعقل منزلة في التشريع الإسلامي واهتمام بالغ، بل إن العقلَمعيارٌ للتصرف في المال فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) ﴾النساء: ٥.

وقال تعالى: ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ ﴾النساء: ٦فمن كان رشيداً يحسن التصرف فإنَّه يحسن تصرفه بالمال، ومن كان سفيهاً فلا يجوز أن يُعطى المال.

كما جاء كتاب الله حافلاً بصيانة العقل الإنساني، وحياطته من كل ما يُذهب فكره، ويُعطِّل مَلَكته، فنهي عن تناول الخمر لما لها من تأثير بالغ على ذلك فقال تعالى :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾المائدة: ٩٠.

وبيّن تعالى أنَّ الخمر له تأثير سيء على الناس بوقوع العداوة والبغضاء التي تجري بينهم، فمن احتسى ذلك وسكر وغاب عقله، فإنَّه لا غرابة أن يعتدي على الناس ويقع في ألوان المحرَّمات والمعاصي، وذلك كلُّه مُفرح للشيطان الذي يريد ذلك ويتغيَّاه، ولهذا نهى تعالى عن الخمر فقال:﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١) ﴾المائدة: ٩١.

٤) حفظ (العرض/ النسل):

في كتاب الله تعالى عشرات النصوص التي تحثُّ على حفظ المرء لعرضه ونسله، وحفظه لعرض الآخرين ونسلهم كذلك.

فالله تعالى حثَّ على النكاح والزواج فهو الطريقة الشرعية التي تقبلها النفوس الطيبة، والفطر السلمية، فقال تعالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)**﴾النساء: ٣.

وبيَّن أنَّ الطريقة الشرعية في النكاح استئذان الأهل، دون أن يكون هنالك محبَّة ماجنة وعلاقات سابقة فقال: ﴿**فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ**﴾النساء: ٢٥

وأمر تعالى بغض البصر؛ سداً لذريعة التوصُّل لكل حرام بالمرأة الأجنبية، وكذلك حثَّ تعالى المرأة على غض بصرها، فقال تعال: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ**﴾النور: ٣٠ - ٣١.

ونهى عزَّ وجل عن مجرَّد الاقتراب من الفاحشة فقال: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢)**﴾الإسراء: ٣٢وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)**﴾الأنعام: ١٥١.

ونهى تعالى عن إيذاء المؤمنين والمؤمنين بقذفهم في عرضهم أو عرضهنَّ، وبيَّن أنَّ من فعل ذلك فقد تحمَّل الإثم الكبير، فقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)**﴾الأحزاب: ٥٨وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣)**﴾النور: ٢٣.

وبيَّن سبحانه أنَّ من قذف المحصنات ولم يأت بأربعة شهداء على زعمه، فإنَّه يُجلد، فقال عزَّ وجل: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)**﴾النور: ٤.

ونهى تعالى عن غيبة الآخرين وهمزهم ولمزهم والسخرية منهم، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)**﴾الحجرات: ١١ - ١٢.

وحثَّ تعالى على احترام وبر من كان سبباً لإخراج المسلم إلى هذه الحياة وهما الوالدين فقال تعالى: ﴿ ۞ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾** ﴾الإسراء: ٢٣.

وبيَّن عزّ وجلَّ أنَّ التبني الذي كان يُعمل به في الجاهليَّة حرام، حتَّى لو كان الشخص يُنسب لمحمد بن عبد الله صلَّى الله عليه وسلم، كما في حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، قال: "إن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن.. ﴿ **ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾** ﴾الأحزاب: ٥([125]).

٥) حفظ المال:

لقد بيَّن تعالى أنَّ المال هو ماله تعالى وهو مالكه فقال تعالى: ﴿ **وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ** ﴾آل عمران: ١٨٠ فهذا المال من فضله تعالى ، وهو عزَّ وجلَّ الذي أعطاه لعباده وآتاهم إياه، فقد قال تعالى :﴿ **وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ** ﴾النور: ٣٣، لذلك جعلنا عزَّ وجل مستخلفين فيه، فقال تعالى:﴿ **ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾** ﴾الحديد: ٧.

وحثَّنا تعالى على الأكل من رزقه تعالى، فقال: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾** ﴾الملك: ١٥.

وأرشد سبحانه لكتابة الدين والإشهاد عليه حفظاً لحقوق الناس المالية، قال تعالى:﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ** ﴾البقرة: ٢٨٢إلى قوله: ﴿ **وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ** ﴾البقرة: ٢٨٢.

ونهانا عن أكل أموالنا بالباطل،فقال:﴿ **وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾** ﴾البقرة: ١٨٨

وطلب تعالى من عباده القيام بالصدقات على من كانوا يستحقون ذلك، فقال تعالى:﴿ **وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾** ﴾الإسراء: ٢٦ - ٢٧

---

[125] صحيح البخاري، رقم: (٤٧٨٢).

ونهانا عن إتيان الأموال للسفهاء حتى لا يضيع المال، وفي المقابل يقوم القائم على أموالهم بحفظها ورعايتها، والإنفاق عليهم منها، فال تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٥) ﴾النساء: ٥.

وبيَّن تعالى أنَّ من وقع في جريمة السرقة وثبت ذلك في حقِّه فإنَّ يده تُقطع، فقال: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) ﴾المائدة: ٣٨ - ٣٩.

ولقد ذكر بعض العلماء أنَّ هذه الضرورات الخمس التي جاءت مقاصد الشريعة بحفظها ، قد تضمنَّتها بعض الآيات بكاملها ، ومنها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا (٢٥) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا (٣٤) وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦) ﴾الإسراء: ٢٣ - ٣٦.

ففي هذه الآيات العظيمات، يُمكن استخراج الضرورات الخمس منها:

١) حفظ الدين، لقوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}.

٢) حفظ النفس، لقوله تعالى: {وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ }.

٣) حفظ النسل، لقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}.

٤) حفظ المال، لقوله تعالى:{ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}إلى قوله: {وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}وقوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ} إلى قوله: {إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}.

٥) حفظ العقل: فلا يمكن لغير المكلَّف العاقل أن يقوم بهذه الجوانب، ومن كان عقله فاسداً، فإنَّه سيقوم بنقيضها!

كما ذكر أنَّ هنالك آية أخرى جاءت بحفظ هذه الضرورات، كقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ الممتحنة: ١٢.

وفي هذه الآية العظيمة نستخرج الضرورات الخمس منها:

١) حفظ الدين، لقوله تعالى: {لا يشركن بالله}.

٢) حفظ النفس، لقوله تعالى: {لا يقتلن أولادهن}.

٣) حفظ النسل، لقوله تعالى: {ولا يزنين}.

٤)حفظ المال، لقوله تعالى: {لا يسرقن}.

٥) حفظ العقل، لأنَّ من يقوم بذلك فعقله صحيح راجح، ومن فعل خلافه فعقله فاسد طالح.

وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٥١ - ١٥٣.

هذه الآية العظيمة اشتملت على هذه الضرورات الخمس:

١) حفظ الدين، لقوله تعالى: { أن لا تشركوا به شيئاً} وقوله تعالى: {وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله}.

٢) حفظ النفس ، لقوله تعالى: {ولا تقتلوا أولادكم} وقوله تعالى: {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق}.

٣) حفظ النسل، لقوله تعالى: {ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن}.

٤) حفظ المال، لقوله تعالى: {ولا تقربوا مال اليتيم} وقوله تعالى : {وأوفوا الكيل والميزان بالقسط}.

٥) حفظ العقل، وذلك بأنَّ هذه الجوانب لا يقوم بها إلاَّ المكلَّف الذي يقوم بحفظ هذه الضرورات بما فيها من أوامر ونواهي، ولهذا خاطبه بذلك لكي يتعقَّل،فقال تعالى: {ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون}.

القضيَّة الثالثة

نظر خاص في تدبُّر المقاصد القرآنية

قمت بجهد مُتواضع بالنظر في كتاب الله تأمُّلاً وتدبُّراً، وحاولت أن أجمع مقاصد كلَّ سورة من سوره الكريمة، وأُركِّز النظر في مقاصد كلِّ سورة، والفكر في مدلولاتها، حتَّى إذا جمعت المقاصدالعامَّة لكلِّ سورة منه، آثرت أن أنظر في القواسم المشتركة الجامعة بين تلك السور، وذكر الشبيه بشبيهه،وإلحاق النظير بنظيره، والإفادة من جهود أهل العلم السابقين الذين كتبوا في هذه القضيَّة، حتَّى توصَّلت إلى بضعة مقاصد قرآنية كبرى، أرجو من الله تعالى أن أكون قد وُفِّقتُ في الاجتهاد فيها، والله يغفر الزلل والخطأ، وسأذكرها هنا متمحِّضة مُختصرة، دون ذكر دلائلها وشواهدها من الآيات القرآنية، حيث سيطول بنا المقام إزاء ذلك، وهي على النحو الآتي:

١) ترسيخ العقيدة:

وتحته الكثير من المقاصد الجزئيَّة، كتوحيد الخالق، والحث على العبادة، وتوحيد الأمر والنهي، وبيان أركان الإيمان، والحذر من اتباع الهوى والبدع والشرائع الباطلة أو المنسوخة، وتذكير العباد بالحشر يوم المعاد، وببعثة الأنبياء ودعوتهم الناس، والحث على الولاء والبراء، والتحذير من الشرك والنفاق، وإسعاد الأنفس بالأمن والاهتداء التام حالة ثباتهم على توحيد الله تعالى.

٢) نظام التشريع العام:

وهو مُتناول لكل أنواع التشريعات والأحكام التي شرعها الله لعباده لمعرفة الخالق، بما يُصلح أمر المخلوق، وبيان أنواع من التشريعات المتعلَّقة بين الخالق والمخلوق،أو بين المخلوقين أنفسهم؛ في مجال العبادات أو المعاملات؛ على وجه تكاملي شمولي توازني وسطي، بشريعة سمحة يسيرة.

٣) تزكية الأنفس:

وفيها مقاصد جزئية تتناول:الدعوة إلى الأخلاق الحميدة والآداب الفاضلةوإصلاح القلوب؛ ليكون المجتمع الإسلامي ذا سلوك متَّزن ملتزم بثوابت العقيدة والشريعة والأخلاق، سواء أكان ذلك السلوك مع المسلمين أو غيرهم، مع الحث على العمل الصالح في الدنيا وبيان ثمراته ونتائجه الدنيوية والأخروية.

٤) صياغة العقول:

لبناء العقليَّة الإسلاميَّة الواثقة من دينها، ودعوة العقول للتفكر والتدبر، في آيات الله المسطورة، ونعمه وآلاءه المنظورة، وتواريخ الأمم والأنبياء المأثورة، ومحاورة الضالين المنحرفين عن دين رب العالمين، ومجادلتهم ونقض شبهاتهم، وذكر الأساليب النافعة حيال ذلك.

٥) الجهاد العام:

بالقيام بدعوة جميع الناس إلى دين الله وتقريبهم منهبالتي هي أحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعدم إكراه الناس على الدخول إلى دين الإسلام، والجهاد في سبيل الله بالقتال دفعاً لكيد الصائلين على بلاد المسلمين وأرواحهم، وقتال من يحول بين المسلمين وبين دخول بلاد أخرى تحت حكم الإسلام ورايته.

٦) إقامة نظام سياسي:

حيثُ إنَّ الله استخلف عباده، في هذه الأرض، للقيام بحكم الناس بالإسلام دولة ونظاماً بالعدل والشورى والإحسان، والعمارة والتعاون المثمر لمصلحة المسلم والإنسان، وإصلاح أوضاع معيشتهم واقتصادهم وأموالهم، والقيام بحفظ حقوق الناس، والأخذ على يد من فرَّط فيها.

ولو أردت تعداد الآيات الكثيرة تحت كلِّ مقصد، لطال بنا البحث الذي طُلب فيه الاختصار، علَّ كلَّ كلمة من هذه الكلمات، يُعرف معنى ما فيها من آيات عظيمات، حالة التدبُّر والتأمَّل، والله سبحانه وتعالى يلهمنا رشدنا ، ويقينا شرِّ أنفسنا والشيطان.

انتهى

والحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات

انتهيت من كتابة هذا البحث مع شروق الشمس ليوم

الأربعاء الخامس من شهر رجب ١٤٣٤ الموافق ١٥ مايو ٢٠١٣

قائمة المصادر والمراجع

١) الإعجاز والإيجاز، أبو منصور الثعالبي، دار الرائد العربي ١٩٨٣م

٢) أضواء البيان ، الشنقيطي، دار الفكر، سنة النشر: ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

٣) الاجتهاد المقاصدي: حجيته، ضوابطه، مجالاته، نور الدين الخادمي، كتاب الأمة، عدد ٦٦، قطر، ١٩٩٨م.

٤) إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي/ بيروت، ط: ٨، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥ م

٥) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور.

٦) الإسلام يَتَحَدَّى، وحيد الدين خان، مراجعة وتقديم د. عبد الصبور شاهين.

٧) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي.

٨) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، ط١، القاهرة، إدارة المطبعة المنيرية.

٩) الآداب الشرعية، ابن مفلح، دار عالم الكتب.

١٠) أسباب النزول، الواحدي.

١١) إشارات الإعجاز، سعيد النورسي.

١٢) الاعتصام ، الشاطبي، دار ابن عفان، سنة النشر: ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م

١٣) البرهان في علوم القرآن، محمد الزركشي، دار المعرفة ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٤) بدائع الفوائد، ابن القيم، الناشر : مكتبة نزار مصطفى الباز – مكة المكرمة الطبعة الأولى ، ١٤١٦ – ١٩٩٦، تحقيق : هشام عبد العزيز عطا – عادل عبد الحميد العدوي – أشرف أحمد

١٥) البحر المحيط في الأصول، الزركشي، دار الكتبي، سنة النشر: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ط١

١٦) بدائع السلك في طبائع الملك ، ابن الأزرق.

١٧) تاج العروس، الزبيدي، دار الفكر، بيروت.

١٨) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، دار طيبة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

١٩) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، دار سحنون.

٢٠) تاريخ الإسلام، الذهبي.

٢١) التفسير الكبير، الفخر الرازي، دار الكتب العلمية ببيروت ، سنة النشر: ٢٠٠٤م – ١٤٢٥هـ.

٢٢) تفسير الطبري ، محمد بن جرير الطبري، دار المعارف.

٢٣) تدبُّر القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، د. رقيَّة طه العلواني ، ط: ٥ ، ٢٠٠٨م.

٢٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية للكتاب.

٢٥) تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة.

٢٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة عام ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، + ط: دار الفكر.

٢٧) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، ، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط:٣، ١٤١٨ – ١٩٩٧م.

٢٨) جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي.

٢٩) حلية الأولياء ، أبو نعيم الأصبهاني، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٠) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، دار الفكر - بيروت ، ١٩٩٣

٣١) ديوان أحمد شوقي، جمع وشرح رشيد الأشقر، بيروت: دار صادر.

٣٢) الرسالة، الشافعي، دار التراث، ط: ٣، ١٤٢٦-٢٠٠٥م.

٣٣) روح المعاني ، الألوسي ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٤) الزهد والرقائق لابن المبارك ت أحمد فريد، ط دار المعراج

٣٥) سنن النسائي.

٣٦) سنن ابن ماجه.

٣٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف، الرياض.

٣٨) صحيح البخاري.

٣٩) صحيح مسلم.

٤٠) صحيح ابن خزيمة.

٤١) صحيح ابن حبان.

٤٢) الصحيح في فضائل القرآن وسوره وآياته، دار القلم، ط:١، ١٤٢٩ – ٢٠٠٨م

٤٣) الصحيح المسند من أسباب النزول،دار ابن حزم - الطبعة: الثانية/ ١٤١٥هـ

٤٤) الفائق في غريب الحديث والأثر، الزمخشري، المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار المعرفة – لبنان ،ط:٢.

٤٥) الفوائد، لابن القيم.

٤٦) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني.

٤٧) فتح من الرحمن الرحيم في بيان كيفية تدبر كلام المنان، أحمد سبالك.

٤٨) الفوز الكبير في أصول التفسير ، الدهلوي، المكتبة العلمية لاهور ١٩٧٠م.

٤٩) فتح القدير،المحقق: سيد إبراهيم، دار زمزم - الرياض - الطبعة: الأولى - سنة الطبع: ١٤١٣هـ

٥٠) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل ، عبد الرحمن حبنكة الميداني ، دار القلم – دمشق، ط:٤، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

٥١) قواعد الأحكام ومصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية.

٥٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري،دار الكتاب العربي،بيروت ١٤٠٧هـ

٥٣) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، د. يوسف القرضاوي، دار الشروق، ط:٢٠٠٧م.

٥٤) لباب التأويل في معاني التنزيل، الخازن، المحقق: محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية/ بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ

٥٥) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، مادة "دبر" بيروت، ١٤١٤هـ

٥٦) الموافقات ، للشاطبي، تحقيق الشيخ عبد الله دارز. ط ٢. ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م. دار الفكر العربي – القاهرة.

٥٧) مجموع الفتاوى،ابن تيمية، جمع وترتيب الشيخ: عبد الرحمن بن قاسم، ط:١٣٩٨هـ

٥٨) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، دار الكتب العلمية.

٥٩) مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الجيل، سنة النشر: ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

٦٠) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع.

٦١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية الأندلسي، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٦٢) معالم التنزيل، البغوي، دار طيبة.

٦٣) مسند الإمام أحمد، طبعة الرسالة، تحقيق : شعيب الأرناؤوط وجماعة.

٦٤) مستدرك الحاكم، طبعة دار المعرفة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

٦٥) مشكاة المصابيح ، التبريزي.

٦٦) مصنف ابن أبي شيبة.

٦٧) مصنف عبد الرزاق.

٦٨) المنثور في القواعد، البدر الزركشي، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الطبعة الثانية ، ١٤٠٥، تحقيق : د. تيسير فائق أحمد محمود.

٦٩) مناقب الشافعي، الرازي.

٧٠) محاسن التأويل، القاسمي.

٧١) مسند الإمام أحمد .

٧٢) مدارج السالكين، ابن القيم. دار الكتاب العربي،١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

٧٣) المستصفى، الغزالي، دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ط١.

٧٤) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية،ط. دار ابن حزم.

٧٥) الموافقات،الشاطبي،تحقيق: مشهور بن حسن،دار ابن عفان، سنة١٩٩٧م

٧٦) المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الغزالي، دار الشروق،١٤٠٩هـ.

٧٧) نظم الدرر ، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٧٨) الوحي المحمدي ، محمد رشيد رضا.